روافد

تأمل واعتبار
قراءات في حكايات أندلسية

الدكتور عبدالرحمن علي الحجي

أستاذ التاريخ الإسلامي والأندلسي

د. عبد الرحمن علي الحجي:

من مواليد العراق، حاصل على الدكتوراه في التاريخ، وهو أستاذ التاريخ الإسلامي والأندلسي والسيرة النبوية. له إنتاج علمي غزير، من مؤلفاته: «العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية»، و« التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة»، و«السيرة النبوية: منهجية دراستها واستعراض أحداثها»، و«أندلسيات»، و«الكتب والمكتبات بالأندلس»، و«جوانب من الحضارة الإسلامية» وغيرها...

روافد

نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة – رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 2487106 (+956) - فاكس: 2468134 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يونيو 2008م / جمادى الآخرة 1429 هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 2008/183

ردمك: 978-99906-678-0-6

فهرس المحتويات

تصـــــديـــــر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لم يكن سرد القرآن الكريم لتاريخ الأمم السابقة وقصصهم خلوا من الفائدة، بل كانت له مقاصد وغايات، من بينها تحقيق الاعتبار في نفوس الناس ومسيرتهم، وتبصرتهم بأسباب التقدم والنجاة وموجبات التخلف والهلاك.

وإذا تحقق ذلك، فإن المنهج يقتضي أن يرتفع مفهوم الاعتبار من دلالته التربوية الفردية إلى نسق فكري يحكم وعي المسلمين في قراءتهم لماضيهم وماضي البشرية وحاضرهم وحاضر الإنسانية، كي لا تتكرر الأخطاء وأسبابها، ولا تتوقف مسيرة النماء والصلاح في عطائها.

ولعل سقوط الأندلس يمثل محطة حضارية كبرى لتحقيق أعلى درجات الوعي بأهمية الاعتبار، فقد كانت نموذجا إسلاميا حضاريا استوعب العلوم والفنون والآداب، وامتد إلى رعاية الإنسان والحيوان والطبيعة، ثم كان السقوط العنيف الذي توالى باستسلام المدن الأندلسية تباعا .

ومن أجل إحياء الوعي بأهمية الاعتبار ودوره في الفهم والتجاوز، فإن قطاع الشؤون الثقافية يقدم اليوم على نشر كتاب « تأمل واعتبار: قراءات في حكايات أندلسية» للدكتور عبد الرحمن الحجي، وهو سياحة حضارية في عطاء المسلمين بالأندلس في العلوم الشرعية والحياة الاجتماعية والأدبية، عطاء أسهم فيه العلماء ورجالات الدولة والأدباء والرجال والنساء.

ولم يكن الهدف من وراء نشر هذا الكتاب الركون إلى نزعة بكائية تتألم لفقدان الأندلس، وإنما يأتي الاهتمام بتلك الحكايات لتحقيق الأهداف الآتية:

- إبراز دور المسلمين، بمختلف فئاتهم، في النهضة الحضارية التي عرفتها الأندلس.

- تأكيد قيم التسامح والتعايش التي شكلت الخلفية النفسية والاجتماعية للمسلمين في علاقتهم بالنصارى واليهود في تلك المنطقة التي كانت تنتمي إلى العالم الإسلامي.
- الإسهام في تحقيق درجات كبرى من الاعتبار ، من خلال التأمل الدقيق في مجريات الوقائع والأحداث والمواقف ، واستخلاص الدروس الكفيلة بأن تتحول إلى منارات تهتدي بها الأمة في نهضتها المأمولة. يقول الكاتب: «والأمل، كل الأمل إن شاء الله ، أن يتم تفهم ذلك، والتعلم منه والاعتبار له ، وهو بعض المطلوب من وراء كل هذه الحكايات ، وهو من الأهداف المهمة لدراسة التاريخ عموما» ، ويقول في مناسبة أخرى بين يدي الإشارة إلى قصة إقدام أحد ملوك الإفرنج على رهن تاجه عند خليفة المسلمين: «ألا تعتبر هذه الحادثة من النوادر الفريدة التي يحتوي تاريخنا على أمثالها الكثرة الوفيرة في كل ميدان، مما يجعل الاهتمام به واجبا أو فرض كفاية ، تنظر الأمة فيه وتعتبر وتقتبس منه، وهي في سبيل استئناف مسيرتها الكريمة بركبها المبارك».
- التدليل على أن سبب نهضة المسلمين بالأندلس إنما تكمن في تشبثهم بالقيم الإسلامية في كتاب الله وسنة رسوله ، والتحرك بها هداية للذات والمجتمع ، وإن الانهيار الذي عرفته بلاد الأندلس إنما جاء بسبب عوامل موضوعية .
- اعتبار الفرقة والخيانة والشقاق بين ملوك الطوائف أحد الأسباب الجوهرية في سقوط الأندلس.

ويسر قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن يقدم للقراء الكرام هذا الكتاب ضمن مشروع «روافد» الفكري والأدبي والفني، وفي سلسلة « مراجعات» ، أملا في أن يسهم في تحقيق المراجعة الحضارية المنشودة.

إن الكتابات حول الأندلس كثيرة ومتنوعة، بل إن قضية الأندلس

امتدت لتشكل أعمالا شعرية وروائية ودرامية، ومن المؤمل أن ينضاف هذا الكتاب إلى تلك الذخيرة، مع التأكيد أنه يتميز بمنهجه الاعتباري الواضح، ويقدم إضاءات حول سنن الفعل الحضاري، ويعتني بإلقاء الضوء على عوامل التقدم وأسبابه، ويجلي ذلك من خلال الوقوف عند النماذج الإيجابية في تلك الحضارة التي أشرقت، وارتقت بالإنسان في مختلف أبعاده.

وقد ساعد الكاتب على تحقيق هدفه تخصص أكاديمي واطلاع معرفي ونظر شمولي، فضلا عن معايشة ميدانية لجغرافية الأندلس وطبيعتها، وذلك كله ملاحظ في عرضه لمختلف الحكايات.

ونسأل الله أن ينفع بكتابه هذا، ويجعله لبنة في بناء المراجعة الحضارية الشاملة. والله الموفق.

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحابته أجمعين.

منذ سنين وأنا أُعدُّ قائمة بقصص أندلسية، تمر خلال الاشتغال بأبحاث متنوعة عن الأندلس، وكافة متعلقاته التاريخية المتسعة، ومنها الحضارية والإنسانية عموماً. وكلما كانت تمر حادثة أو قضية أو أمر، لايخلو من عِبْرَة أو عَبْرَة.. أضعها حالاً في الأوراق المعدة لذلك، مع الإشارة إلى موضعها في المصادر، إلى أن استوت مادة علمية وحضارية يمكن أن تصاغ في قالب يجمع بين السرد والاعتبار .

قد يأتي إلى الخاطر أن كتابة هذه الحكايات كان سهلاً، لكن حقيقة أمرها غير ذلك تماماً، فإلى جانب أن الأندلس هو الميدان العلمي والتأليفي والدراسي الأكثر جرياً : تَجوالاً وتَصوالاً (أو مُجاولة و مُصاولة)، فلم يكن كتابتها سهلة المأخذ والاستيعاب والتقديم، المتناسب مع لونها وهدفها وتدقيق معلوماتها ، دون الدخول في مناقشات التباين في محتوياتها، بل تقديم خلاصة مُحْبَكة مُدْرَكة مُشْرِقة، في ثوب يُمهِّد لموضوعها والعِبْرَة من تقديمها وسَوْقِها بهذا الثوب الذي تُقدَّم به اليوم، ليصل بالقارىء إلى المعنى المرجو استقرارُه في النفس، لا يَنْفُضُ ولا يَنْفَضُّ عنه الهدف المأمول، والذي من أجله قُدِّمت هذه الحكايات.

كل ذلك تم – والحمد كُلُّه لله – بأعلى درجات التوثيق، التي غدت أوليات ألفبائية. وبه تتجاوز الكتابة كُلِّياً هذه المرحلة، إلى السعي الحثيث وراء المعلومات في كل مظانها، لا تستثني اللغات الأخرى، ونوادرها العربية منها، مطبوعة كانت أو مخطوطة. كل ذلك مع النظر العلمي الذي يتحرى الحقيقة ويوضحها، مع أيِّ أحد كانت، بإنصاف محكم تام، حيث يتوفر الدليل ويقود، ومع النظر في بواطن الأمور ومدلولاتها، بتفتح واسترخاء واستئناس، المتضمن الغيرة على الحقيقة والعناية بها وقولها. وهذا بنفسه يُعبِّر عن الجهد المبذول في هذه الكتابة ويبين نوعيتها وتميزها.

إن كثرةً من هذه الحكايات لا تَرِدُ، حين يجري تناول كثير من الموضوعات البحثية العامة. والحق أنها لا يجب أن تُتْرَك أو تُهْمَل أو تُبْعَد عن تناول الموضوعات التاريخية، لكنها قد لا تجد لها مكاناً مناسباً معها. ومن هنا كان من المهم لِزاماً أن تُقدَّم ولا تُضيَّع، لجمالها وتأثيرها ومكانتها، في السياق التاريخي ومجريات الأحداث وحبكة الترابط الموضوعي. وجرت لها العناية الفائقة اللازمة الحازمة، فاستفرغت جهداً ووقتاً ومثابرة للوصول بها إلى أفضل مستوى من البحث النوعي والجدارة والنضارة، من غير أن تفقد طبيعتها ومضمونها ونكهتها، مع الحفاظ على أهليتها العلمية بأكبر دقة وثقة ومرجعية لتأخذ مكانها.

وأحتاج منك - أخي القارىء الكريم والقارئة الكريمة - أن تتوجه إلى الله تعالى بدعوة كريمة صالحة لي وللأمة – سلفاً وخلفاً وأجيالاً - صاحبة هذا التاريخ وحضارته ، بالبركة والعافية والأجر وأن يتقبل هذا العمل ويجعله عبادة وجهاداً وخدمة لدينه.

وإني لأظن تماماً – تبعاً لهذا كله - أن كل حكاية تصلح دون تردد أن تكون ممثلة على شكل مسرحية أو مسلسل تاريخي جميل وجذاب ومؤثر، حيث قلما نجد مسلسلاً تاريخياً خالياً من الحشو واللغو والتحريف،مما يجعله أحياناً فجاً ومهلهلاً ومحبطاً،بحيث يستخسر فيه ذلك الجهد والخدمة والبذل، إلا إذا اسثنينا الديكور والملابس والتجميل(المساحيق)!!!. ولذلك فتاريخنا بحاجة إلى من يقدمه بعيداً عن التجارة، إلا أن تكون تجارة رابحة نافعة مثمرة.

والشكر موصول إلى كل مَنْ عاونني في هذه الحكايات، سواء بالتشجيع والكتابة والمتابعة أو غيرها، والله يبارك الجميع ويثيبهم الخير العميم. وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين.

1

سفارة أندلسية إلى الدانمارك

سفارة هي من غرائب وعجائب ونجائب الدبلوماسية الأندلسية، قادها السياسي والدبلوماسي اللبق وشاعر الأندلس وحكيمها المبدع: يحيى بن حَكَم الغَزَال الجَيَّاني من مدينة جيان JAEN، شرق مدينة قرطبة[١]، الذي لقبه بالغزال الأمير الأندلسي عبدالرحمن الأوسط (٢٣٨ هـ = ٨٥٢م) لوسامته بقوله: «جاء الغزال بحسنه وجماله»، عُمِّر الغزال نحو مئة عام (١٥٤ - ٢٥٠هـ = ٧٧٠ - ٨٦٤م)، عاصر خلالها خمساً من أمراء الأندلس: الداخل وهشام والحكم والأوسط ومحمد، يمثله قوله:

أدركتُ بالمصرَ ملوكاً أربعهْ　　　وخامساً هذا الذي نحن معهْ

لقد سبق أن كان للغزال سفر (تولي سفارة دبلوماسية) للأمير عبدالرحمن الأوسط إلى القُسطنطينية (تركيا - إستانبول اليوم، أو إسلام بول، أي: مدينة الإسلام) بحراً من ساحل الأندلس الشرقي (مُرْسِيَة MURCIA)(٢٢٥هـ= ٨٤٠م) ولقاء إمبراطورها تَوْفِلِس (THEOPHILUS)[٢]، وإذا كانت هذه السفارة لا تخلو من غرائب ممتعة، فإن سفارته إلى الدانمارك DENMARK أشدُّ غرابة وأكثرُ مهابة وأوعبُ نوادر وانجذاباً.

كانت سفارتُنا هذه سنة ٢٣٠ هـ = ٨٤٤م إلى الدانمارك أيام الفايكنج THE VIKINGS (وهم: النورمان - المجوس الأُرْدُمَانيون) خلال حكم ملكهم هوريك HORIC(٢٤٠هـ = ٨٥٤م) المتنصر حديثاً من الوثنية؛ إذ أرسل سفارة إلى الأندلس أيام الأمير عبدالرحمن الأوسط، تطلب صداقة الأندلس بعد هزيمتهم (النورمان) في هجومهم البحري المفاجئ (٢٢٩هـ / ٨٤٤م) على شواطئ الأندلس الغربية عند لشبونة LISBOA، LISBON

١- عنه وعن سفارته إلى الدنمارك، انظر رسالة الدكتوراه:

Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe,pp. ١٦٦ ff.

وترجمتها العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية، ٣٢٢ وبعدها

٢- عن هذه السفارة، انظر: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، ٢٩-٦٦ المقتبس، ابن حيان، القسم الأول من الجزء الثاني، ورقة ١٦٠ب - ١٦٣أ.

(عاصمة البرتغال اليوم)، فأجابهم الأمير عبدالرحمن الأوسط بهذه السفارة برئاسة الغزال (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م).

أبحرت السفارة الأندلسية برئاسة الغزال - صحبة الوفد الدانماركي العائد - من مدينة شِلْب SILVES (البرتغالية اليوم)، تمخر عُباب مياه الأطلسي بمحاذاة الساحل الأندلسي الغربي شمالاً، مجتازة أمواجه العاتية المهلكة المغرقة وتياراته الهوجاء الضاربة، لتصل إلى الدنمارك عبر بحر المانش (ENGLISH) CHANNEL LA MANCHE ومضيق دوفر STRAIT OF DOVER، وبحر الشمال NORTH SEA، وصولاً إلى الدانمارك.

وجرت للغزال هناك حكايات وطرائف ومواقف يُشاد بها، تنبئ عن قوة تربيته الإسلامية، ونوعية بناء المجتمع الإسلامي الملتزم، وعنها ينطلقون في كافة أحوالهم، لا تغلبهم الاعتبارات الدبلوماسية، رسوماً وأعرافاً وأوصافاً.

استغرقت سفارة الغزال إلى الدانمارك - ذهاباً وإياباً - عشرين شهراً، كانت مليئة بالغرائب والعجائب والطرائف، كلها تُسَجَّل ضمن المفاخر والأمجاد، سواء في رحلة الذهاب البحرية أو الإياب البرمائية، أو أثناء الإقامة هناك، وما دار من لقاءات ومنازلات ومناظرات وما كان من إعجاب القوم به، بل وتعلق الملكة نود NUD، زوجة الملك هوريك، وكان «للغزال معهم مجالس مذكورة ومقاوِم مشهورة، في بعضها جادل علماء هم فبكّتهم وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم، ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه»[٢].

توفرت أخبار هذ السفارة المشوقة لدى ابن دِحْية الكلبي الأندلسي (٦٣٣ هـ =١٢٣٥م) في كتابه «المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب»، رواية

٢- المطرب، ١٣٨، ١٤٥.

عن صديق الغزال تمّام بن عَلْقمة، وبعد استراحة السفارة في البلاط الدانماركي اتُخذَت الإجراءات للقائها بالملك وأطلعوا على قواعد وآداب المقابلة ETIQUETTE، وكان منها الانحناء للملك عند الدخول، فأبى الغزال ذلك، مبيناً بإصرار أن الانحناء لا يكون إلاّ لله تعالى، حتى لو لم تتم المقابلة، فما كان منهم إلا الاستجابة.

وفي يوم اللقاء، احتالوا عليه فوضعوا في صدر مجلس الملك مَدْخَلاً مقوساً منخفضاً، حيث لا يسع الداخل إلا الانحناء أمام الملك، ويكونون قد حققوا رغبتهم، لكن السفير المسلم الذكي الألمعي الأبي، أدرك الحيلة حالاً، فما كان منه إلا أن «جلس على الأرض وزحف حتى اجتازه، وباطن قدميه إلى وجه الملك ثم قام، وهكذا جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على إلْيتيه زحفةً، فلما جاز الباب استوى واقفاً والملك قد أعدّ له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره» [٤]، وسلم على الملك ومضى في مجلسه داعياً ومستشهداً بآية كريمة ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص ٨٨)، فأعظم الملك كلامه وقال: هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم» [٥] متعجباً من جلوسه على الأرض وتقديم رجله في الدخول، قائلاً: «أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه» [٦].

وبعد بقاء الغزال في بلاط ملك الدانمارك ما يزيد على السنة، عاد إلى قرطبة الأندلس، لكن عن طريق إسبانيا النصرانية التي دخلها من خليج بسكاي BAY OF BISCAY إلى مدينة شنست ياقب SANTIAGO DE COMPOSTELA، وبقي عند ملكهم نحو شهرين، ومن هذا الطريق عاد داخلاً إلى الأندلس، ليصل إلى قرطبة، حاضرة الأندلس

٤- نفسه.

٥- نفسه.

٦- نفسه..

العامرة، بعد مرور نحو سنتين أنفقها في هذه الرحلة منذ انفصل عنها ذهاباً وإياباً.

وتتوافر تفاصيل كثيرة شيقة لهذه السفارة تتضمن حديثاً عن الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الدانمارك، كما تحتوي وصفاً جغرافياً، وتُسمى الدانمارك عند بعض الجغرافيين المسلمين، كالشريف الإدريسي (٥٦٠هـ)، صاحب كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دانا مَرْشَة.[٧]

ولعل هذه السفارة أول ارتياد إسلامي هناك. وهذه واحدة من مضامير ومضامين الحضارة الإسلامية الحافلة بالفتوحات المتنوعة، وفي جانبها الدبلوماسي، أضاءت العالم بالتزام مجتمع الإسلام به.

٧- راجع: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية، ص (٣٦٢).

2

ابن الفَرَضي القرطبي..
القاضي الفقيه الشهيد

احتوى تاريخنا الإسلامي والأندلسي ومقروءاته تسجيلات، تجاوزت الأحداثَ وسيرها الغنية الحية الذكية - حتى وقت الهبوط - إلى ما وراءها من الأحاسيس والمشاعر، بأقلام أصحابها أو روايةً عنهم وملاحظاتهم المستنبطة. وكلها ذاتُ نوعية فذة، تدعُك تقرأ الكثير من سطورها أو ما وراءها، تدلك على طبيعتهم الواقعية وصدقهم مع أنفسهم ومجتمعهم، بعد صدقهم مع الله وحده، مصدر الرحمة والخير كله، والاستقامة والبناء والعطاء، ترى في كل ذلك من بنائهم الإنساني الذي يُقدّم لك صوراً نادرة بعيدة عن التعقيد والادعاء والتظاهر والمظاهر المُهَوّمَة الموهِمة الخادعة، تنبِئُك عن الثقة والوضوح والقوة، حتى في موطن الضعف، وهذا عام ملحوظ معلوم في تاريخنا الإسلامي وحضارته.

ونحن هنا أمام حدث يوضح ذلك، صَدَرَ عن الفقيه القاضي أبي الوليد ابن الفَرَضي الحافظ المعروف (٣٥١ - ٤٠٣هـ/ ٩٦٢ - ١٠١٣م)[٨] الذي تجد أخباره في العديد من مصادرنا الأندلسية، وغيرها أحياناً، أمثال نفح الطيب للمَقَّري والذخيرة لابن بسام، والمغرب لابن سعيد، ولعل هؤلاء جميعاً نقلوا من شيخ المؤرخين الأندلسيين - بَلَديِّه وعصريه - ابن حَيّان القُرطبي (٤٦٩ هـ) من الجزء المفقود من كتابه «المُقْتَبس في أخبار أهل الأندلس».

رحل ابن الفَرَضى إلى المشرق سنة ٣٨٢ هـ وأخذ عن العلماء وأدى الحج، وكان خلال حَجهِ قد تعلق بأستار الكعبة ودعا الله بالشهادة، ثم نَدِمَ وأراد أن يستقيل الله تعالى، فاستحى ولم يفعل، ثم عاد إلى الأندلس، وخلال فتنة قرطبة قُتِلَ شهيداً سنة ٤٠٣هـ، وقد رُوِي عنه ذلك بقوله: «علقت بأستار الكعبة وسألت الله تعالى الشهادة، ثم انحرفت وفكرت في هول القتل، فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله سبحانه وتعالى، فاستحييت»، وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه، فسمعه يقول بصوت ضعيف: «لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه

٨- عنه انظر: نفح الطيب ٢/٩٢ أو الذخيرة ١/١٨٣، المغرب ١/٣٠١.

يَثْعَبُ دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك»، كأنه يُعيد على نفسه الحديث الشريف الوارد في ذلك[٩].

وفي هذا المثال إشارات متعددة إلى قضايا كثيرة مهمة، وإن كان مرورنا بها الآن عابراً، لكنها تُبرز في حياته وأمثاله أموراً متنوعة مهمة، منها: كثرة الأعلام، نِساء ورجالا، في حضارتنا يفوق - كَمًّا ونوعاً ونتاجاً - كل ما لدى جميع أُمم الأرض الأخرى وقتها من أعلام. وموضوع الأعلام في الحضارة الإسلامية يستحق الإفراد بالدراسة الجامعية المنهجية المتأنية، وأن العالم في حضارتنا الذي يعمل بعلمه ويعيش به بين الناس ومعهم ويقدم لهم الخدمات، لاسيما وقت الأزمات.

وابن الفرضي أحد هؤلاء الأعلام العظماء، وألف عنهم أكثر من كتاب، منها «تاريخ علماء الأندلس»، لابن الفرضي نفسه، وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا من مؤلفاته التي ضاعت ضمن ما ضاع من نفائس ذخائرنا، وأثمر كتابه هذا متابعة التأليف في موضوعه [١٠]، منها: عمق المعرفة وتأصلها وتمكنهم فيها حتى لكأنها موروثة وراثةَ المواصفات الخَلْقية، وقد كانت عامة وشاملة، حتى لَيمكن القول إنه لم يكن فقط لا يوجد في الأندلس أمّيٌّ واحد، بل كان العلم والمعرفة عامة لدى الجميع، وإن كثرةً من العلماء كانوا موسوعيين، ولعل اللقب العلمي «الحافظ» يتضمن ذلك. فقد كان ابن الفرضي قاضياً، تولى القضاء في أكثر من مدينة أندلسية، وفقيها ومُحَدِّثاً حافظاً للحديث متقناً للعلوم، يُرْحَل إليه، ومؤرخاً وعالماً يجمع فنون العلم، بارعاً فصيحاً وشاعراً حسن الشعر والبلاغة والخط والجودة، يدل القليل الذي وصلنا من شعره على منزلته فيه، وقد احتذاه شعراء وأخذوا من معانيه، وأشبه هذا التنوع المبني على أساس كريم وقيم الإسلام ومُثُله بالنّحل، يُقَدم الطَيّب المتنوع الطعوم والألوان، فيه للناس شفاء ومن شعره:

٩- رواه البخاري ٣٩٥٢، ومسلم ٦٧٨١، والنسائي ٦٩٠٣ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

١٠- راجع: الكتب والمكتبات في الأندلس (للمؤلف)، ص١٥ وبعدها

أسير الخطايا عند بابك واقفٌ
على وَجَلٍ عَمّا به أنت عارفُ
يخاف ذنوباً لم يغبْ عنك غيبها
ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائفُ
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويتقى
وما لك في فصل القضاء مخالفُ
فيا سيدي لا تُخْزِني في صحيفتي
إذا نُشِرَت يومَ الحساب الصحائفُ
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما
يَصُدُّ ذوو القربى ويجفو المؤالفُ
لئن ضاق عِني عَفْوك الواسع الذي
أُرَجّي لإسرافي فإني لتالفُ

يُذكر- بغير حق ولا علم – أن الفقهاء تجمدت أحاسيسهم الأدبية، فكان أدب الفقهاء وشعرهم جامد العاطفة ثقيل التعبير ضعيف الجودة. لكن الأمر ليس كذلك أبداً. فبجانب الشعر العلمي كألفية ابن مالك، التي وأمثالها، لا تخلو من جمال التصور والتصوير والطرافة والنكتة الذكية، فإن أدب الفقهاء – نثرا وشعراً – يمتاز بعذوبة التعبير ورقة العاطفة الصادقة النظيفة وصدق الأحاسيس ودقة الوصف والغور النفسي والإنساني وهدف المقصود أكثر من غيرهم. علماً بأن دراسة المجتمع الإسلامي بأكمله في الأساس فقهية، ثم يكون التخصص.

وللأسف،فإن كثيرا من اهتمام الدراسات والمناهج والنتاج المعاصر والمتابعات الغالبة ركزت على دراسة النّتاج الهابط المظلم الذي بعضه ملفق، ولذلك جمعت طائفةً غير قليلة من النماذج الأدبية الكريمة في الأندلس وسميته «صالح شعر الشعراء»[11]، وينتظم ابن الفرضي ضمن هؤلاء،

١١- راجع التاريخ الأندلسي، ص٣٤٦.

وإليك ما قاله في أسرته حين فارقهم واتجه إلى المشرق:

مَضَت لي شهور منذ غبتم ثلاثةً
وما خِلتُني أبقى إذا غبتمُ شهرا
وما لي حياةٌ بعدكم أستلذّها
ولو كان هذا لم أكن في الهوى حّرا
ولمُ يُسلِني طولُ التنائي عليكم
بل زادني وَجداً وَجَدد لي ذكرى
يمثّلكم لي طولُ شوقي إليكمُ
ويدنيكمُ حتى أناجيكمُ سراً
سأستعتبُ الدهرَ المَفَرق بيننا
وهل نافعي أن صرتُ أستعتب الدهرا
أعلّل نفسي بالمنى في لقائكم
وأستسهلُ البر الذي جُبتُ والبحرا
ويؤنسُني طيُّ المراحل عنكمُ
أروحُ على أرض وأغدو على أخرى
وتالله ما فارقتكم عن قِلىً لكم
ولكنها الأقدارُ تجري كما تُجْرَى
رَعَتْكم من الرحمن عين بَصيرة
ولا كشفت أيدي النوى عنكمُ سترا

ويقول متغزلاً في زوجته:

إن الذي أصبحت طوع يمينه
إن لم يكن قمراً فليس بدونهِ
ذُلّي له في الحب من سلطانه
وسقامُ جسمي من سقام جفونه

وهذا كل ما وصلنا من شعره وأظنه قليل من كثير ويدل علي شاعرية مرهفة قوية عالية. ويمكن أن يستنتج أن هذين البيتين سبقهما أُخَر. وتكاد تكون هذه الأبيات هي كل أو جُلّ ما وصلنا من شعره.

3

عائشة الحرة الأندلسية

الحضارة الإسلامية - ومنها الأندلسية - ثرّة مدرارة، ترى غناها متدفقاً، يعجلك ويدافعك أو يسابقك ويغلبك على نفسه أو نفسك. وهذا يتم عندما تغوص في الأعماق منه، بالعُدّة اللازمة المؤهّلة، متروياً متبصراً، بدوافع نية ذاتية، عُدَّتها إيمان بالله تعالى عميق راسخ وإخلاص له سبحانه.

إن استعراض هذه الصّيغ وتقديمها مُهم للاطّلاع ولإطّلاع الجيل عليها وتفهمه لها، كي يحاكي منطلقاتها ويتبناها ويبني كما بنوا، فالإسلام أنزله الله تعالى لكل الأجيال لينيروا به الحياة ويعمروها على أساس سليم كريم، ويقيموا الحضارة الإنسانية الحقة، لقد شارك في صناعتها عموم المجتمع الإسلامي - بمقدار الالتزام به - من النساء والرجال، كباراً وصغاراً، ووجد فيها غَيْرُ المسلمين الجو الذي يحلُمون به، بل ربما لم يكن يخطر لهم على بال. كل ذلك غاب فهمه عن كثير من مسلمي هذا اليوم، فكيف بغيرهم؟

كثيراً ما يدور نقاش حول المرأة وحقوقها وموقعها في الإسلام، مجتمعاً وحضارة، والمسلمون في الغرب اليوم يواجهون ويوجهون أمطاراً من الأسئلة عن المرأة، وهوما دعاني إلى التفكير والاستعداد لوضع مؤلّف- إن شاء الله- عن «المرأة في الحياة والحضارة الإسلامية»، أرجو الله تعالى أن أوفق له. والحق أن هذا الأمر واضح معلوم لولا الجهل بحقائق الإسلام. وللمناسبة فقد عقد مؤتمر عن المرأة في الإسلام في إحدى الدول العربية، وكان بين المتحدثين مستشرقون، أحدهم فرنسي، فلما جاء دوره في الحديث ذكر أن الذي يعلم قليلاً عن الإسلام يعرف مكانة المرأة فيه، وهو ما يعني ألاّ داعي لمثل هذا المؤتمر، لأن خير مكانة للمرأة هي مكانتها في الإسلام. وربما كانت هذه هي ورقته للمشاركة في هذا المؤتمر المخصص للمرأة في الإسلام.

وعلى الرغم من أن المرأة المسلمة تعلم أن مهمتها الأولى والأهم رعاية الأسرة وتربية الأولاد وإعدادهم لبناء الحياة الفاضلة بالإسلام، أهّلها

الله فطرةً وخلقاً وطبيعة للقيام بهذا الواجب، وأعدها وبما يتلاءم وهذه المهمة، نفسيّاً وفكريّاً وبدنيّاً، فإنه أباح لها القيام بأعمال أخرى خارج البيت والمشاركة في كافة الميادين، لاسيما العلمية والعملية، بل وأصعبها حتى على الرجال الأقوياء، ولها مواقفُ ومواقعُ بناءة، من صدق الوفاء والالتزام، وكُتبت في ذلك صفحات خالدة مجيدة ومضيئة، ابتداءً من الصحابيات قدوات الأمة ولهن. كل ذلك كان بنشأتها الإسلامية وتربيتها لأولادها، فكانت محضن الحنان والبناء بالإيمان. وحين تتخلى عن ذلك يَتجرّع الناسُ من المشاكل الجسام، مما لا ينفع معه أي علاج ولا المؤتمرات التي تقام لمواجهتها هنا وهناك.

وهذا يَظهر جليّاً على مدار التاريخ الإسلامي وحضارتُه في كافة البلدان، التي كان منها الأندلس، الذي احتوت حضارتُه صيغاً نسوية باهرة، والأمثلة جد كثيرة. فهذه عائشة الحرة الأندلسية واحدة منهن، وهي غير سَمِيتّها المغربية بنت أحد المجاهدين في مدينة تطوان - في المملكة المغربية اليوم - التي تزوجت حاكم تطوان، حفيد أحد مهاجرة الأندلس، وحكمت المدينة بعد وفاة زوجها. أما سميتها الأندلسية فهي زوجة سلطان الأندلس أبو الحسن على الغالب بالله، وأم آخر ملوك غرناطة GRANADA: محمد الحادي عشر، أبو عبدالله الصغير، ويعرف بالإسبانية بوبديل BOABDIL، وبه يعرف حتى عند الشعب الغرناطي اليوم، وهو الذي وقع معاهدة استسلام وتسليم غرناطة، ثم كان الاستيلاء عليها سنة٨٩٧هـ = ١٤٩٢م.

ثم كانت مغادرته الأندلس نهائياً إلى المغرب - بعد أقل من سنتين - ليستقر في مدينة فاس المغربية، ويقدم رسالة اعتذار مطولة إلى سلطانها(١٢).

١٢- راجع: التاريخ الأندلسي ص ٨٦٥ ومابعدها. هجرة علماء الأندلس ص ٧١٢. العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية ص ٢٥ وما بعدها.

لقد كانت مفاوضات الاستسلام ثم التخلي عنها للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل FERNANDO، ISABEL في أكتوبر- نوفمبر ١٤٩١م[١٣].

صورة رقم (١):



تمثل هذه الصورة تسليم مفاتيح غرناطة من قبل أبي عبدالله الصغير (يسار) إلى الملكين الكاثوليكيين، فرناندو وإيزابيل (يمين)، بعد توقيع المعاهدة قبل ذلك، بما يزيد على الشهر. وتم تسليم هذه المفاتيح في أوائل ربيع الأول ٨٩٧هـ أوائل يناير ١٤٩٢م. ثم كان دخول النصارى غرناطة. (راجع كتاب هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة، للمؤلف، (ص :١٨٦، ١٩٢، ٢١٧) الصورة موجودة في الكنيسة الكبرى، العظمى (CAREDRAL، CARTHEDRAL) في غرناطة التي بنيت في موقع المسجد الجامع الأعظم فيها.

رحل هذا الملك الصغير من غرناطة الحرة الأبية الزكية، وبعد معارك مقفرة مفقرة مدمرة وقف لها أبطالها بقيادة فارسها المُعلم موسى بن أبي الغسان الذي رفض الاستسلام.

١٣- ثم كان السقوط والتسليم في ربيع الأول ٨٩٧هـ يناير/ كانون الثاني ١٤٩٢م.

ها أبو الغسان ثائرْ	مع فرسان اليمينْ
هَمُّه محو الجرائر	إن يثوروا بعد حينْ
هم يَعُضُّون الأنامل	مهدَه هم داخلون

وبينما هذا الملك الصغير خارج منها إلى مدينة أندرش ANDARAX جنوب شرق غرناطة من قرى البُشَرّات ALPUJARRAS مع أسرته وحاشيته وأمه عائشة الحرة، وقف وهو على فرسه فوق تل البذول ينظر إلى غرناطة، الدرة الفريدة المضيعة التي سلمها لقمة سائغة للعدو الصليبي الذي كسر ودمر ثم هجَّر، وقف فقال (الله أكبر) ثم انفجر باكياً متأسفاً على غرناطة الحبيبة الجميلة آخر نظرة دامعة والتي تعرف بـ زَفْرة (حسرة) الأندلسي الأخيرة، بالإسبانية:

SP. EL ULTIMO SUSPIRO DEL MORO

وبالإنكليزية: ENG. THE LAST SIGH OF THE MOOR

صورة رقم (٢)



Soriano y Murillo, pinx.

'The last sigh of the Moor', 897/1492.
(From *PHE.*, I, 435)

تمثل هذه الصورة رحيل أبي عبد الله الصغير نهائياً من غرناطة إلى مدينة قريبة منها: أندرش (مرحلة ليغادر الأندلس نهائيا إلى المغرب بعدها بنحو سنة) مع أسرته وحاشيته، وكانت معهم أمه عائشة الحرة الأندلسية، وعندما وصلوا إلى مرتفع فوق تل البذول التفت ناظراً إلى غرناطة باكياً،

فكانت هذه نظرة وهي زفرة وحسرة.

وهنا قالت له أمّه متأثرة معيّرة له مُسكتته: ابكِ مثل النساء ملكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال!!

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً ... لم تحافظ عليه مثل الرجالِ

فذهبت عبارتها حكمة ثاقبة باقية مأثورة، لعلها هي أيضا زفرت حزنا أصيلاً، ولأنه لم تُجدِ معه تربيتها وأُمومتها، البريئة من ذلك كله ومنه. وفي ذلك نقول:

أبو عبد الله الصغير ... يبكي مِثَل الصاغرينْ
كيف أصبحت الأمير ... وتمــالي النــاقمـين
أيَّ فرســانٍ هَزمْتَ ... والخيــولَ تـركبــونْ

4

حمدونة الغرناطية
الشاعرة

بلغت الأندلس درجة عالية من الرقي الحضاري في كافة الميادين، ومنه الرقي العلمي المتنوع الذي كان أساسا للحضارة الأوروبية الحديثة. فكانت الأندلس أكبر وأهم معبر لجوانب من الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، لكن هذا النقل كان محصورا مراقباً من القسس والرهبان لتلك القنوات، لمرور ما أرادوه دون غيره، حيث لا يمر شيء له علاقة بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً، وإن تفلتت من ذلك أمور محدودة غلبتهم، وسمحت فقط للعلوم البحتة PURE SCIENCE، فقطعت تلك العلوم من أصولها وارتباطها، وصارت أداة لمصالحها، واستعملت كذلك في الشرور المبيدة المبيرة، والعصر الحاضر على ذلك دليل، أي دليل.

والحضارة الإسلامية لا تعرف هذا اللون من استعمال العلم وثماره المرة لأنها مؤسسة على الإيمان بالله وتوحيده ومرتبطة بالعقيدة الربانية وشريعتها، فهي حضارة التوحيد الوحيدة، وحضارة الرحمة والعدل والحق الأكيد الفريد من بين الحضارات، قديمها وحديثها.

لقد حاربت البابويةُ كنيستها هذه العلوم، لأنها منقولة إلى أوروبا من الحضارة الإسلامية. ولهذا السبب وغيره، أحرقت محاكم تفتيشها كل من أصر على تلك المعارف من العلماء الأوروبيين، من أمثال: عالم الفلك الإيطالي جيوردانو برونو GIORDANO BRUNO (١٦٠٠م)، ونجا منها من تنازل عن مقولاته العلمية من أمثال:غاليلو GALILEI GALILEO (١٦٤٢م)، أما كوبرنيكس البولندي NICOLAS COPERNICUS (١٥٤٣م) فقد أنقذه الموت!.

حققت الأندلس هذا التألق الحضاري الفريد ذا الكيان والتكوين الإسلامي، في وقت كان كل ما حولها مظلماً ومتخلفاً وتالفاً، إنسانياً وفكرياً وخلقياً، فنهلت أوروبا من هذه الحضارة، فكانت توفد طلابها إلى الجامعات الأندلسية، يتلقون منها العلم لسنوات.

لقد عم العلم أهل الأندلس، نساء ورجالا، وظهرت النساء في الميادين المتعددة العلمية والأدبية، وكل ما يتناسب مع تكوينها وفطرتها ووظيفتها، ونبغت في الآداب بكل فنونه الشعرية والنثرية، وأبدعت في ذلك فنوناً، وليست الموشحات إلا فناً أندلسيّاً وليداً.

ولدينا من الشواعر قائمة طويلة منهن تناولن أرق المعاني وأدقها وارتجلنه وأجزنه، ودع شهرة ولادة بنت المستكفي ومن نتاجها الشعري الذائع وما اتهمت به وما أُلصِق بها، بكل ما فيه من زُور.

فهذه اعتماد الرُّميكية أجازت نصف بيت قاله المعتمد بن عباد (٤٨٨هـ = ١٠٩٥م) أمير إشبيلية وشاعر الأندلس - وقتئذٍ - ومجاهدها، الذي كان في قارب يجول في نهر إشبيلية SEVILLA الوادي الكبير GUADALQUIVIR مع صديقه الشاعر المعروف ابن عمار الذي عجز عن إتمامه، فإذا جارية تعمل في أحد البيوت المطلة على نهر الوادي الكبير، تغسل شيئاً فيه، سمعته فأجازته، فأعجب بها المعتمد وتزوجها، وكانت أم أولاده الملوك، قال المعتمد حين زرَّدت(١٤) الريح وجه ماء النهر:

صنع الريح من الماء زَرَدْ

وقال لصديقه: أجز، فأطال ابن عمار الفكرة ولم يفعل، فأجازته امرأة من الغسالات (اعتماد):

أيُّ درع لقتال لو جَمَدْ

أما حَمدونة (أو حمدة) الغرناطية بنت زياد المؤدب الشهيرة - ومثلها أختها زينب - من ساكني وادي الحمَّة بقرية بادي من مدينة وادي آش GUADIX على بعد ٥٣ كم شمال شرق غرناطة GRANADA، ومن أعمالها، أي توابعها إدارياً، قريبة من جبل الثلج: سيرانيفادا NEVADA SIERRA ضمن سلسلة جبال شلير (شلير): الشمس ، الذي لا تفارق

١٤- جعلت الريحَ وجه المياه في تموجه مثل حلق (حلقات) الدرع المتماسكة المتسلسلة المترابطة.

الثلوجُ قمته طوال العام، وهو كذلك الآن.

ومدينة وادي آش مدينة جليلة قد أحاطت بها البساتين والأنهار، وقد خص الله أهلها بالعلم والأدب وحب الشعر، ومن عجائبها المذكورة أنه توجد قربها إحدى شجرتين في الأندلس من القَسْطل (من فصيلة البلوط: الكستنة أبو فروة)، في جوف كل واحدة منها حائك ينسج الثياب، وذلك لضخامة هذه الشجرة المُعَمّرة. ولا عجب فإن في حدائق الحمراء بغرناطة شجرة يسمونها السلطانة، وعمرها يزيد على ٧٠٠ سنة، وكانت حية مُورقة إلى قبل نحو عشرين سنة.

ولعل جمال البيئة والطبيعة الأندلسية، بأشجارها الباسقة وأزهارها العبقة وثمارها ومياهها قد كسى أدبهم جمالاً وبهاءً ورقّة، بهذه الصيغ والصور المزدهرة الرقراقة، وفتق الطاقات وفتح للقرائح الأدبية أبواباً وارتقى بها وأضفى عليها رِقّة، أية رقة!.

لُقبت حمدونة بخنساء المغرب، ووصُفت بأنها شاعرة الأندلس، شعرها رقيق رقراق أكسبته وكسته جمالاً بتعبيراتها ومعانيها وصورها الأدبية الجديدة. لها عدة قصائد مما تبقى من شعرها، خرجت مرة مع رفيقات لها إلى نهر مدينة وادي آش، فقالت تصف ذلك بأبيات، منها:

أباح الدمعُ أسراري بوادي — لـه للحُسْـن آثـارٌ بَـوَادي

فمِنْ نهرٍ يطوف بكلّ رَوْض — ومن روضٍ يرفُّ بكل وادي

ومن شعرها هذه القطعة الرائعة - ذات الأبيات الخمسة - التي ربما لها تتمة لم تصلنا. ولجمالها ورقتها وإجادتها ادعاها آخرون، أو نسبت إليهم، حتى في المشرق. ولكن الثابت والمؤكد أنها لحمدونتنا هذه[١٥]

١٥- انظر: نفح الطيب، ٢٨٨/٤، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤٨٩/١، المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد، ١٤٦/٢، تحفة القادم، ابن الأبار، ٢٣٥.، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١٢١٢/٣. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ٥٣١/٥ - ٥٥٦ الحضارة الإسلامية في الأندلس ص ٣٧وما بعدها.

وقانا لفْحَةَ الرَّمضاءِ واد

سَقَاه مضاعف الغيثِ العميمِ

حَلَلْنا دَوْحَهُ فحنا علينا

حُنُو المرضعات على الفطيمِ

وأرشفنا على ظَمَأٍ زُلالاً

ألذ مِنَ المدامة للنديم

يصدُّ الشمسَ أنَّى واجهتنا

فيحجُبُها ويأذنُ للنّسيم

يروعُ حَصاهُ حاليَةَ العَذارى

فتلمسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيم(١٦)

١٦- قالت حمدونة تصف بهذه الأبيات نهراً ربما حول ضفافه غابة أو هو يجتازها ويسقي تلك الغابة الرائعة بخضرائها يجري فيها بمائه الزلال اللذيذ الصافي، والظاهر أنه نهر صغير داخل الغابة يجري منحدراً بصفائه وسيله الرائق المتدفق. ولعلها لو شبهت ماءه في البيت الثالث بتشبيه آخر لكانت قد استكملت بهذه القصيدة المحامد وحازت الجمائل وجمعت الحمائل من أطرافها.

تشير الشاعرة حمدونة في البيت الأخير إلى روعة وصفاء مياه النهر وجمال قاعه الذي تغطى بهذا الحصى الجميل الواضح للناظرين حتى ليخيل للفتاة التي تلبس عقداً إذا نظرت لحصى النهر داخلها الخوف على عقدها متفقدة إياه تجده لا يزال في مكانه يزين جيدها فتطمئن حامدة الله تعالى على أنها لم تفقده، وعندها تشرع في الاستمتاع في النهر متملية من جماله الفريد.

5

ورهن الملكُ تاجه

ما من وقتٍ التزم فيه المسلمون بدينهم إلا وفتح الله لهم بذلك المغاليق، وحققوا الانتصارات في الميادين كافة، وعاشوا أعزة يحفون أنفسهم بالبر وينعمون بالخير العميم والسعادة الكريمة والحضارة الوضيئة، ولكل مَنْ حولها ومعهم والناس أجمعين. وتلك ظاهرة لم تتأخر على مدار التاريخ وأطوار القرون، وهذا يعني اليوم أنهم إذا أرادوا أن تكتنفهم تلك النعم، فما عليهم إلا الأخذُ بالمنهج الرباني الذي أراده الله للبشرية، يقودون به الحياة نحو الحضارة الإنسانية الحقة.

وما الشقاء الذي يلف البشرية ومدنيتها اليوم ويخنق آمالها - بعد ما تحققت لها المنجزات العلمية - إلا لما أدارت ظهرها لهذا المنهج، متقلبة في شتى المناهج الأرضية والوضعية، التي ذهب بريقها الأخاذ، وقد ادعت لنفسها ما لم تنجز منه شيئاً، وهي حتماً لا تستطيع، لأنها لا تملك أسباب ذلك، وحتى بعدما امتلكت قواها أزمة الحياة واستبدت بها، متلاعبة بمصائرها، مقامرات ومغامرات نفعية أنانية خادعة مدعية، رغم كل ما تحمل من شعارات براقة، فهي خالية عموماً من كل مضمون كريم.

ويَرد هنا قانونٌ هداني الله تعالى إليه - استخرجته من خلال سَيْر التاريخ الإسلامي- أسميه: «الخط البياني المزدوج»، فلو رسمنا خطاً بيانياً يمثل الحياةَ الإسلامية - خلال مسيرتها - انتصاراً وانحساراً، ارتقاءً وانزواءً، تقدما وتخلفا، ثم رسمنا خطا بيانيا آخر يمثل مقدار التزام المسلمين بالإسلام خلال تاريخهم، ووضعنا الخطين أحدهما فوق الآخر لتطابقا تماماً. وهذا يعني أن التقدم في الحياة الإسلامية كان مرتبطاً دوماً بمقدار التزام المسلمين بمنهج الله تعالى، وبهذا الالتزام حققوا الأعاجيب التي لا تكون إلا به، وذلك أن تقارن بما شئت وكيف ومتى أحببت. والبشرية جمعاء اليوم بحاجة إليه، وإن الذي لديها غير مؤهل لتحقيق الحياة الكريمة المرجوة.

وتوجد في تاريخنا الإسلامي وحضارته أدلة كثيرة على ما حققه هذا

المنهج الرباني للإنسان، مما يعد فرائد ونوادر لا تكون إلا به، وهي تشير وتلفت النظر إلى الخسارة في جعل المسلمين عموماً - حتى بعض أهل الفهم منهم - يزهدون في معرفته ودراسته وتقديمه، بمفاخره وازدهاره وبراءته وبراعته، بردائه وأضوائه، مما جعل هذه المواصفات سمة لازمة قائمة في حضارتنا الفاضلة، بصورة مستمرة، تحدثك عن طبيعتها القائمة المعبرة عن مبانيها ومعانيها. وهي تشير إلى مدى الخسارة الإنسانية الكبرى في إبعاد هذا المنهج الذي صنع هذه الصنائع واصطبغت بها حياته ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (البقرة: ١٣٨).

فهذا الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) الذي حكم خمسين سنة (٣٠٠ - ٣٥٩ هـ = ٩١٢ - ٩٦١م) - والذي وُجدت مذكراتهُ بخط يده[١٧] تشير إلى أن أيام السرور والراحة خلالها أربعة عشر يوما- كان أوسع حكام العالم شهرة ومكانة، وامتلأ بلاطه القرطبي بالقادمين، ملوكا وأمراء وسفراء، كلهم يخطب وده. ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان وأوفدوا عليه رُسُلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يَعِنّ في مرضاته، ووصل إلى سُدَّته الملوكُ من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتاله وبَنْبُلونه وما يُنسب إليها من الثغور الجوفية (الشمالية)، فقبَّلوا يده، والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه)، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية.[١٨]

وإليك هذه الحادثة العبقرية: ذلك أن شانْجُهُ الرابع (SANCHO LV) أحد ملوك قشتاله(CASTILE) شمالي إسبانيا ثار سنة ٦٨١ هـ

١٧- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ١/١٨٢. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ١/٣٧٩.

١٨- نفح الطيب، ١/٣٤٥، ٣٦٦.

(١٢٨٢م) على أبيه الفونسو العاشر العالم (AKFANSO XELSABIO) بن فرناندو (فرديلاند - فيرديناند) الثالث بن ألفونسو الثامن[١٩] ملك قشتالة ذلك الوقت، وهي إحدى الممالك النصرانية في شمالي شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلسية). ألفونسو العالم عُرف بميله للعلم، وبما كانت له صلات مع علماء المسلمين، وهوما أثار السخط عليه في مملكته، فاستنجد هذا بالسلطان المريني (بنو مرين ودولتهم بالمغرب) أبي يوسف يعقوب المنصور، وهرع الملك المخلوع إلى لقائه فرهن عنده تاجه، ذكر ذلك العديد من مؤرخينا[٢٠]

ولهذه الحادثة تفصيلات مثيرة، مجملها: أن ألفونسو هذا استنصر بالسلطان المريني المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، الملقب بالمنصور، الذي جاء إلى الأندلس غازياً ومجاهداً في سبيل الله، ولاذ به ألفونسو العاشر هذا واستجار ورَهَنَ عنده تاجَه، ذخيرةَ قومه، ولقيه (بأحواز الصخرة من كُورة تاكُرُنّا) قرب مدينة رندة[٢١]، RONDA فسلم عليه مصافحاً وَقَبَّلَ يده، ولكن لما فرغ أمير المسلمين من ذلك طلب الماء (بلسان قبيلة زناتة) ليغسل يده به من قُبْلَة ومصافحة ألفونسو، بمحضر من النصارى والمسلمين، ولما توفي ألفونسو العاشر هذا طريداً سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤م) دون أن تتحقق أمنيته في العودة إلى عرشه، فأنفرد ابنه شانجه الرابع، وهذا بدوره رغب في سلم مع المرينيين، فتم له هذا الأمر وعقد مع السلطان المريني يوسف (ابن المنصور) معاهدة سلم فقبلت، وكان لقاؤه به بالجزيرة

١٩- أنظر: التاريخ الأندلس، ص ٤٦٦، ٤٦٧، ٥٢٦.

٢٠- أعمال الأعلام، ابن الخطيب: ٣٣٢-٣٣٤، وله: الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب: ١/٦١-٦٣ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ص ٥٣٩-٥٤٠.

٢١- كانت هذه المدينة قاعدة لبني مرين، ومقراً لانطلاقهم إلى الجهاد في الأندلس، انظر عن هذه المدينة الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال محمد عبد الله عنان، ٢٧٦ ، والمقصود بالصخرة هي صخرة عباد من أحواز مدينة رندة، ولمعرفة موقع رندة انظر الخارطة المرفقة، وهي بمعنى المدينة المدورة. انظر كذلك عن هذه المدينة الروض المعطار: ١٢٩-٢٦٩ نفح الطيب، ١/٢٦٥، ٢/٦٠٧.

الخضراء جنوب جبل طارق.[٢٢]

ويوم جاء رسول إسبانيا النصرانية إلى مملكة غرناطة وتكلم مع رئيس وزرائها (لسان الدين بن الخطيب، ٧٧٦ هـ) ذكره بذلك أمام الناس، الذين ذُهلوا معجبين بهذا الموقف الجريء، وبعضهم قبل يده، وهو (ومن معه) يبكي واصفاً ابن الخطيب بولي الله، جعل الله تعالى ذلك خالصا لوجهه الكريم[٢٣].

ألا تعتبر هذ الحادثة من النوادر الفريدة، التي يحتوي تاريخنا على أمثالها الكثير الوفير في كل ميدان، وهو ما يجعل الاهتمام به واجباً أو فرض كفاية، تنظر الأمة فيه وتعتبر وتقتبس منه، وهي بسبيل استئناف مسيرتها الكريمة بركبها المبارك؟ وذلك هو الرجاء.

٢٢- عبر ابن خلدون، ٤/٢٩٢. الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب. ١/٥٦٢. نهاية الأندلس: ص١٠٦.

٢٣- أعمال الأعلام، ابن الخطيب: ٢٣٣، نفح الطيب، المقري: ٥/١٢٠-١٢١.

6

وكنا به الفرس

الشيخ الوزير ذو الوزارتين لسان لدين ابن الخطيب الغرناطي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، (٧١٣-٧٧٦ هـ = ١٣١٣-١٣٧٤م) معاصر وصديق ومثيل ابن خلدون (٨٠٨هـ). واسم ابن الخطيب متألق في سماء الأندلس في القرن الثامن الهجري أيام مملكة غَرناطة التي امتدت نحو ٢٦٠ عاما، على غير المتوقع بحال[٢٤].

وعُرف نِتاجُ ابن الخطيب العلمي والفكري والأدبي المتعدد المتنوع في حياته في المشرق الإسلامي كذلك، بعد مغربه، حيث وُجدت نسخة (أو أجزاء منها) من كتابه الشهير (الإحاطة في أخبار غرناطة) في إحدى مكتبات مصر، بعث بها هو نفسه إلى هناك وجعلها وقفاً على أهل العلم[٢٥]، والكتاب مطبوع الآن في أربعة مجلدات كبار، يمثل واحداً من مؤلفاته الكثيرة.

ويُعَدُّ ابن الخطيب شخصية عجيبة يمثل سَمْتَ الحياة الأندلسية في عصره في العديد من الميادين الحضارية، ولذلك اعتُبر من الموسوعيين، صفة عامة موسومة، قدمت الحياة الإسلامية وحضارتها الكثير منهم في أمصارها. وأعصارها. وهو من أئمة البيان المتعدد الأغراض والشعراء والوشاحين، وصاحب الموشحة الذائعة الشهرة قديماً وحديثاً، ومطلعها[٢٦]

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى   يازمانَ الوصل بالأندلسِ
لم يكنْ وَصْلُكَ إلا حُلُما   في الكَرَا أو خِلْسَةَ المُختلسِ

جرى ذلك في المجتمع الأندلسي الغّرناطي رغم شدة الظروف وأحوال

٢٤- انظر: التاريخ الأندلسي ص٥١٩ وما بعدها. نفح الطيب، ٧/٥ وما بعدها، الإحاطة، ٤٣٩/٦. أزهار الرياض ١٨٦ وبعدها (ترجمته). تاريخ الأدب العربي، فروخ، ٥٠٧/٦، ١٧٩/١٧٦ الأعلام ٧٦/١، ٤٢.

٢٥- انظر ذلك في: الكتب والمكتبات في الأندلس ص١٥١ وبعدها.

٢٦- المغرب في حُلى المغرب، ٢٦٩/١، فتح الطيب، ٧/١١-٨٢، ١٤ (موشحته). أزهار الرياض، ٢١٣/٢ (موشحته). نهاية الأندلس ص ٤٨٠.

الضعف التي أَلَّتْ بهذه المملكة الصغيرة ومجتمعها، لذا ما كان يمكن استمرارها في خضم ذلك المعترك الذي أحاط بها وشَغَلَها ونال منها، لكنها بقيت تصارع عدوها الخارجي ومشاكلها الداخلية، وهي تداوي جراحها الكثيرة المرة المستمرة وتُصْغي وتُصَفّي مواقع الأذى الداخلي، أوقعها فيه ضعف وفتن واعوجاج في حالها، خَفيٌّ أو جليٌّ، مخبوء أو ملحوظ، ألمت به وأشغلته عوادي الأعداء، تستثيره وهي تدفع بحيويتها الموروثة لرد جيوشها ومؤامراتها نحوها، ومع ذلك سجلت بطولات في المقاومة والجهاد، وهي دائرة لم تتوقف في البناء والنماء والمقاومة، حتى كان الاستسلام الذليل، أو العميل الذي تم على يد آخر أمرائها أبو عبد الله الصغير، وبعض بطانته، رغم ما أبدى المجتمع الغرناطي من فداء وإباء أمام هذا المصير الأسود المنكود المشهود. فكان توقيع معاهدة الاستسلام للملكين الكاثولوكيين (فرناندو وايزبيل FERNANDO LSANL - فردناندو وإيزابيلا FERDINAND/AND LSABELLA وجيوشهما الضاربة المدمرة المحيطة)، وبعد أربعين يوماً كان تسليمها للعدو الغادر واحتلالها والاستيلاء على غرناطة الأبية الحبيبة النجيبة أوائل ٨٩٧ هـ = ١٤٩٢م[٢٧].

عاش ابن الخطيب في مثل هذه الأجواء وكان عمود سياستها وعلمها وجهادها، هو وأسرته التي عُرفت قديماً ببني الوزير ثم ببني الخطيب.

وأصل هذه الأسرة أولاً: (CORDOBA TOLEDO) قرطبة، ثم طليطلة عند وقعة الربض، أيام الأمير حكم الأول، رمضان، ٢٠٢ هـ = مارس ٨١٨م. ثم تنقلت في عدة مدن أندلسية، كان آخرها LOJA لَوْشَةً، ثم غرناطة العاصمة أيام مملكتها، أسرة نبغ فيها العديد، ولهم سجل حافل بالمواقف والأعمال العلمية والاجتماعية والقيادية المتنوعة، ولكن ابن الخطيب فيها واسطة عقدها وأكثرهم شهرة، وقد تولى رئاسة الوزراء في

٢٧- راجع: التاريخ الأندلسي ص ٥٥٢ وما بعدها، هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة ص١٨٦-١٩٢ -١٩٣، ٢١٧، ٢٢٧.

مملكة غرناطة نحو عشر سنوات. وكانت مؤلفاته مثل مواقفه وحياته، تُمثّل قمة في الدقة والقوة والعمق، غزارة نتاج وشمول مدارك وعمق تفكير، رغم المشاغل والمشاكل، كما كان متمكناً في النتاج، بحيث إنه كتب في أربعين ليلة - رغم المسؤوليات والمشاكل السياسية - كتاباً في فلسفة الحب الإلهي، سمّاه: (روضة التعريف بالحب الشريف)، مطبوع في مجلدين.

وسجلت أسرته خلال أجيالها مفاخر ومواقف معروفة مذكورة متوارثة، فجدَه الأعلى سعيد من أهل العلم والخير والصلاح والفضل والدين، كان يسكن لوشة على طريق المارة من غَرناطة إلى إشبيليةSEVILLE ، فكان يذيع فصولاً من العلم ويجهر بتلاوة القرآن، ولجمال تلاوته كان يستوقف الرفاق المدْلجة الحنينُ إلى نغمته والخشوع إلى صدقه فتُعَرِّس (تستريح من التعب) رحالها لِصْق جداره وتريح ظهرها موهناً، إلى أن يأتي على ورده[٢٨].

أما جد الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب الأقرب هو سعيد، فكان كذلك من العلم والفضل إلى درجة أن أراده سلطان غرناطة مربياً لبعض أولاده. وكان أبوه كذلك. وهذا يشير أيضاً إلى مزية للمجتمع الإسلامي والأندلسي: عناية الأسرة بأولادها (بنين وبنات)، وكان كثير من الآباء أساتذة وشيوخا لأولادهم، وهي ظاهرة علمية مشهورة بأمثلتها ومثالياتها الكثيرة. وكم من أسرة تورث أبناءها العلم والمهنة والتخصص فيه، وما أكثر الأمثلة. بجانب كل ذلك كان علمهم للعمل، يطرد مع مقداره، ولذلك كان العلماء حاضرين في الحياة معاونين للناس. عاملين به، وفي أكبر مواقفه وأصعب ميادينه: الجهاد. وعلى ذلك كان أخوه وأبوه عبد الله بارزين للجهاد ومعاركه واستُشهدا فيه.

٢٨- راجع الكتب والمكتبات في الأندلس ص ١٤٤، الإحاطة٤/٤٤٠، ٣/٣٨٦ أزهار الرياض ١/١٨٦ وما بعدها.

كان استشهادهم في معركة طريف[٢٩] BATELLADEL SALADO ضد القشتالين ومن معهم من الأوروبيين برعاية البابوية، وقاتل المرينيون (دولة في المغرب)، نجدةً لإخوانهم أهل الأندلس، واستعمل المسلمون فيها نوعاً من المدافع تقذف النيران، واستشهد فيها العديد من العلماء، كان منهم أخو لسان الدين وأبوه عبد الله حيث فُقدا في الكائنة العظمى، والوقيعة الكبرى، بطريف (مدينة) ضحوة يوم الإثنين سابع جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة للهجرة (٣٠/١٠/١٣٤٠م).

حَدّث ابنَ الخطيب بذلك أحدُ شهودها الفقيهُ أبو عبد لله ابن اللوشي خطيب مسجد غرناطة الجامع قائلاً: ((كَبَا بأخيك الطّرْفُ (الجَيّد من الخيل) وقد غَشِيَ العدو وجَنَحْتُ إلى إردافه فانحدر إليه والدُك وصرفني، وقال: أنا أولى به، فكان آخر العهد بهما))[٣٠]

فأيةُ كبوةٍ هذه، لا كالكبوات، إنها كبوةُ تضحية أهل الجهاد، وكم هي في تاريخنا، ونحن نحتاج إلى إضاءاتها وتألقاتها ومثُلها. يظهر ذلك ويتجلى بمعرفة تاريخنا الإسلامي وتقديمه من الأعماق الرخية الأبية الحقة.

٢٩- التاريخ الأندلسي ص ٥٤٤.

٣٠- التاريخ الأندلسي ص ٢٤٥ وبعدها.

٧

7

حَيْرَةُ القالي العلمية

حضارتنا الإسلامية مليئة بالخير، تطفح غناءً وثراءً وتنوعاً في كل اتجاه خَيِّر كريم جديد، خَيريتُها غالبة شاملة، يتضح ذلك حين تُقَلب صفحاتها، وهي لا تخلو منه حتى في حالات الضعف الذي قد يعتري من أهلها، الفرد والجماعة والمجتمع. وتسود خيريتُها كلما زاد تمسك أهلها بهذا المنهج الرباني الذي صنعها.

وكم حالات تتأصل فيها الطرافة العفوية، تَفْجَؤُكَ عِبَرُها ومدلولاتها وبواعثها، تسودها في كل ذلك حيوية متنامية، تُلهم أهلها ويُسَدَّدون، دليلاً على بركة هذا الدين بمنهجه الرباني الفريد، يضفي على الحياة وحركتها نماءً وعلواً وإضاءة، مما لا تمتلكه أيةُ حضارة أخرى سابقة أو لاحقة، إذ استمدت تفردَها من تفرد هذا المنهج القرآني الفريد. وهي كذلك دوماً، كلما كانت أقرب لهذا المنهج في بنائها، أسسا ومقومات وخصائص.

وظني أن هذه الحضارة ما زالت بحاجة إلى دراسة متأنية منقحة مُؤَصَّلة، لا تخشى بحوثُها نقداً مجهرياً جوهرياً حراً علمياً موضوعياً متحققاً، حين تُصَبُّ في قوالبها الحقة المدققة المتفهمة، وهي تستبطن مدلولاتها نشأة واستمداداً ونمواً، عند ذلك ترى من عجائبها المتكاثرة المتبارية البارعة ما يبهرك، ويُقرّك إنسانيةً وتكريماً، ورقياً، وكله بعيد عن المزايدة والافتعال والتكلف، كل يجيد دوره ويعرف قدره فلا يتجاوز أمره، مستقرة بحالاتها الطبيعية ومداركها المتنامية المقررة.

وهذا الكلام مبني بأجمعه على الوقائع المدققة المختبَرة الموثقة، فليس هنالك من كلام في هذه الأمور يُلقى على عواهنه ولا يُدعى له إلا ببرهان. وهذا هو المنهج الإسلامي في الحياة كلها، ومنه عرفت أوروبا المناهج العلمية في البحث والتقصي والمعرفة باعتراف أعلام الأوروبيين الذين أنصفوا هذه الحضارة، مأخوذين بالوقائع الباهرة التي عاشوا بها وابتنوا حضارتهم عليها، أمثال الفيلسوف وعالم البصريات الإنكليزي: روجر بيكون

(AD ١٢٩٢ ROGERBACON)، وهو وأمثاله، معترفين بفضل هذه الحضارة عليهم بكل وضوح وفي كل مناسبة، بل وأمام طلبتهم ومستمعيهم وقرائهم.

وبذلك تجد حضارتنا كافة أحوالها ومستوياتها وأقدارها وأنصارها، تعبر عنه باستحقاقها في موقعها الطبيعي ومقدارها الحق الأصيل.

كل ذلك تجده مدوناً مستوعباً موصوفاً بقدره وظرفه، وتلك الطاقات كانت تحاط بالرعاية وتهيأ لها الأجواء وتمد بكل المستلزمات والمتطلبات، ولا يمضي الكلام إلا وتُعطي له نماذج تدل عليه وتؤكده وتَعْرضه، وليس من الضروري بذل الجهد في التأنق لإيجاد الأمثلة، إنما هي متكاثرة أمامك. تموج بها صفحات هذا التاريخ وساحاته الحضارية المضيئة.

فهذا أبو علي القالي (٣٥٦ هـ ٩٦٧م) الأديب اللغوي وافد الأندلس - قادماً من بغداد - أيام الخليفة عبد الرحمن بن محمد (٣٥٠ هـ = ٩٦١م) الناصر لدين الله، يستدعيه ويحتفي به أيما احتفاء، إلى حد أنه أوكل استقباله إلى ابنه وولي عهده الخليفة العالم الحكم الثاني (٢٦٦ هـ = ٩٧٦م) المستنصر بالله، ويوصيه به. وهو لا يحتاج، لكن زيادة في الاعتناء والتكريم والحرص عليه، فيقوم الحكم بالمهمة على خير صورة. وقد أحبه الحكم بعد الاستقرار في قرطبة، وكان يحثه على التأليف ويوسعه رعايةً وكرماً وعناية شاملة، مادياً ومعنوياً واجتماعياً.

أحسن الحكمُ استقباله منذ وَطِئت أقدام القالي شواطئ الأندلس، وكتب بذلك إلى عبد الرحمن بن الرُماحِس الأمير العامل (المحافظ، الوالي) على كُورتَيْ إلبيرة ELVIRA وبجانة، PECHINA وطلب إليه أن يصحبه مع وفد من وجوه الرعية ومن العلماء يوصلونه إلى قرطبة، وقد تم.

وكان ضمن العلماء المستقبلين ابن رفاعة، وطوال الطريق كانوا يتذاكرون العلم ويتجاذبون الأدب ويتبادلون الحديث، حتى وصلوا قريباً من قرطبة،

فدار الحديث عن خير المناديل، واستشهد القالي ببيت من الشعر للشاعر الصحابي (أو التابعي) عَبْدة بن الطبيب (٢٥هـ)، ضمن قصيدة قالها في وصف المجاهدين في القادسية (١٥هـ)، أذكر منها ثلاثة أبيات[٣١]:

لما نَزَلْنا نَصَبْنا ظِل أَخْبية ... وفار باللحم للقوم المراجيلُ

وَرْدٌ وأشْقَرُ ما يُؤنيه طابخُهُ ... ما غيّرَ الغليُ منه فهو مأكولُ

ثَمَّت قُمنا إلى جُرْدٍ مُسَوّمَة ... أعرافُهُنَّ لأيدينا مناديلُ

لكن القالي قرأها أعرافهم (بديلاً عن أعرافهن، في البيت الثالث)، واستعاده ابن رفاعة الأديب الأندلسي، فثبتها القالي بتلك القراءة: أعرافهم، فما كان من ابن رفاعة إلا أن فارق الركب مُنْكِراً على القالي ذلك مُقِلاًّ من قدره واستحقاقه مُعيباً علمه وأدبه، قائلاً: كيف يكون هذا عالماً وهو لا يُحسن بيتاً يعرفه في الأندلس الأطفال. ولم تُجْدِ محاولات الركب وأميرهم في رد ابن رفاعة عن قراره في مفارقتهم[٣٢] وأُعْلِم الحَكَم بذلك الذي لم يَعِبْ على ابن رفاعة موقفه، ولم ينتقص من علمية القالي الذي كانت في ذلك خَيْرَتُه، وهي دون محنته العجيبة التي تدعو إلى الرثاء والرجاء والدعاء[٣٣].

٣١- انظر: الطريق إلى المدائن، أحمد عادل كمال، ص٥١.

٣٢- عن ذلك وعن ترجمة أبي علي القالي، انظر: نفح الطيب، ٣/ ٧٠-٧١.

٣٣- كما سيرد تفصيل ذلك في الحكاية التالية.

8

محنة القالي العجيبة

وكانت تلك أخرى خاضها القالي وعاش خلالها في حرج شديد، والبداية لابد من التمهيد لهذا الأمر الجديد الفريد الأكيد، في محنته العلمية العجيبة الشاهدة الواردة.

وصلت الأندلس في القرن الرابع الهجري (الحادي عشر الميلادي) قمةً حضارية وسياسية ودبلوماسية قامت عليها، ووضعتها أول بلد في عالمها الإسلامي والعالمي، رقياً متناغماً في كافة الجوانب الحضارية، جعلته مقصداً يخطب وده تموج طرقاته بالوافدين من البلدان يرأس بعضها الأمراء والملوك. وكان الأندلس بقوته المتمكنة تلك لا ينشر دماراً أو يسوس بالتحكم ويدعي العدل، ولكنه كان ينشر العلم والخير والقيم على القادمين، ولدينا في ذلك قصص ما أكثرها.

وقد وصف ابن حيان القرطبي (٤٦٩ هـ = ١٠٧٦م) كل ذلك التقدم والرقي والقيادة - كما أشار إليه العديد من المؤرخين - فقال: (ومَدَّت إليه أممُ النصرانية من وراء الدروب يدَ الإذعان وأوفدوا عليه رسُلَهم وهداياهم، من رُومة والقُسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته) [٣٤]

ففي سنة (٣٣٨ هـ/٩٤٩م)، وفدت سفارة من القسطنطينية إلى بلاط قرطبة، حيث الخليفة عبد الرحمن الثالث، الناصر لدين الله. واحتفل الناس باستقبالها، وأوكل تنظيم الحفل إلى ابنه ولي عهده الحكم المستنصر، وكان ذلك الاستقبال المهيب في قصر قرطبة الزاهر العامر بجوار مسجدها الجامع الباهر، على الضَّفَّة اليمنى لنهر الوادي الكبير، تَفْصل بين القصر ومسجدها الشارع الرئيسي المعروف بالمَحَجَّة الكبرى.

وكانت العادة أن تُعَمَّر هذه الأحفالُ لدى استقبالها في موقعها ومجلسها،

٣٤- كما ورد ذلك في: نفح الطيب، المقري، ١/ ٣٥٤، ٣٦٦، ٣٨٤.

تحف بذلك مراتب أهل الدولة ويمتلئ بهم المكان من الشهود، نساءً ورجالاً وشيوخاً وعموم الناس، مفتوحة مرتادة مُرحبة، ويقوم الخطباء يحدثون ويُشيدون بما حققه الأندلس من التقدم وما بذله المسلمون وحكامهم من جهود لصيانة الحياة ورعايتها وما تحقق لهم من نعمة الله أمناً وأماناً ورقياً وسلطاناً وعلماً وبياناً.

فاختار الحكم صديقه المُقَّرب الفقيه ابن عبدالبر الكَسْتنياني، وتقدم ليلقي كلمته في هذا الحفل المهيب العجيب الغريب، أمام الخليفة ومن حوله والناس، وبحضور وفد الروم. فما أن وقف الفقيه حتى أخذته الدهشة واستأثرت به، فحار ودار وما استدار، فصمت وسكت بل وأرتجَ عليه (ذهب عنه الكلام) وأُغمي عليه. فما العمل يا تُرى للخروج من هذا المأزق الحرج! واتجهت الأنظار ابتداءً من أهل السُّدَّة (الخليفة وولي عهده والوزراء) إلى وافد بغداد الأديب اللغوي صاحب المؤلفات: أبو علي القالي، ليقوم فيسد الفراغ ويشد الفتق ويلئم الخَرْق.

وفعلاً قام القالي ووقف وابتدأ: فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه محمد ﷺ، ثم وقف وقد أرتج عليه القول وامتنع منه الكلام، فلا يجد ما يقول، وهنا زاد الحرج ومضى في الناس الإشفاق والخجل، يبحثون متلفتين عمن يقوم فيسد الخلل ويبعث الأمل، وإذا بهم جميعاً يفاجأون برجل يقوم على غير ترتيب ولا تحضير ودونما طلب من أحد ومن غير إعداد، يقوم مقام الخطيب بجوار القالي، وهو ما زال واقفاً قائماً واجماً، ليبدأ من حيث انتهى القالي، فيأتي بكلام عجيب نثراً وشعراً على البديهة، مما أذهل الحاضرين جميعاً وأدهشهم وأطربهم، وأولهم الخليفة وولي عهده والقائمون. فلو كان ذلك عن إعداد لكان عجيباً وهكذا تُظهر المواقفُ المعادن، وكم في الأمة من مغمور يُعرف بمواقفه حيث تكون الفرص متاحة وتجد القابليات طريقها، يجد فيها كلّ أحد مكانه المؤهل.

فكان هذا هو القاضي منذر بن سعيد البلوطي[٣٥] (٣٥٥هـ = ٩٦٦م)، الذي وجد العناية والرعاية والتقدير، فغدا قاضي الجماعة بقرطبة. وكانت له مواقف بارعة رائعة دافعة في الحياة والمجتمع والحُكم، وكان له قدره عند الجميع، وكان هذا الموقف بركة على منذر ومحنة على القالي.

ولكن لا بأس عليك يا أبا علي القالي، فقد يحتار اللبيب الأديب ويسكت في المحنة الخطيب، أو كما قيل لكل فارس كبوة، وإذا كان لكل فارس نَبْوة فإن لكل خطيبٍ هَفْوة.

٣٥- انظر: نفح الطيب، ١/٣٦٤ وما بعدها.



منظر خارجي لإحدى واجهات مسجد قرطبة الجامع التي تقع على المحجة الكبرى، ومنها المدخل الرئيسي إليه.



منظر جوي لمسجد قرطبة الجامع، ويبدو فيه المسجد وصومعته (مئذنته) وساحته وداخله. ويرى في الشاطئ الآخر أمامك بعد النهر: ربضSACUNDA شقندة

9

قصة

المُصْحَف الشريف

العِلْمُ لا يفتح أبوابه أو مغاليقه ولا يمنحك نفسه أو من نفسه إلا أن تعطيه كذلك، تلك طبيعته. وهذا يستفاد من حضارتنا لمن عاشها وخبرها واستبطن كنهها.

وبذلك يمكن ويكمن الإبداع والجِدَّة والأصالة، وهو ما يجب السعي إليه في التعرف والقراءة والدراسة لحضارتنا. حتى ليمكن تداعي الشوارد والشواهد لتنظم بها عِقْداً أو ترسم لوحة أو تكتب قصة، تعجبك وتدهشك وتنعشك، حتى لتغدو وكأنها بين يديك تستعرضها وتشاهدها وتستشهد بها. تستشعر وقعها وحيويتها أو تتذوق نكهتها وتحس رائحتها. تنطلق بها متحدثاً كاتباً راوياً وكأنها جزءٌ منك يعيش في حياتك وغدا من طبيعتك. تمتلكها تُلّون مبانيها وتُكوّن كيانها. كل ذلك كان ويكون، بمتابعتها وتتبُّع مسارها وثمارها والإحاطة بأخبارها.

اجتمع الكثير من ذلك، بعضها يمكن نظمها ضمن سلسلة طرائف تاريخية وحضارية أو خواطر أو لفتات إخبارية، لكن في الحقيقة، كلهُّا يسلكها خيط واحد، كان الأساس. مع توفر ذلك في حضارتنا، لابتنائها على منهج الله تعالى الذي أغناها وأورثها عزاً وفخراً، ولكن لضياع الكثير من أمهات المصادر فقد يصعب ذلك في بعض الأمور الواردة التي تشير إلى تتمات لها ذهبت، بادت أو غابت.

وأسُوق هنا قصة للمصحف الشريف: القرآن الكريم وعلاقتها بالأندلس. إذ كان لأهله اهتمام مُرَكَّز بالقرآن الكريم والحديث الشريف، والذي هو دَيْدَن كافة البلدان الإسلامية وشعوبها. والقضية تتعلق بملك قشتاله[٣٦]. وتسميه الرواية الأندلسية «الطاغية أذفونش بن رِمُنْد المعروف بالسُّلَيطين».

٣٦- قشتالة: مملكة نصرانية في الشمال الإسباني من شبه الجزيرة الأيبيرية، راجع عنها التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ص٢٧٥.

ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WETH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIODP٤٩.

والترجمة العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية ص٧٥.

وهكذا كانت قضية المصحف الشريف[٢٧]: وذلك أن والي قرطبة CORDOBA وما إليها أواخر أيام الدولة المرابطية، المجاهد أبو زكريا يحيى بن غانية الذي ولاّه أميرها تاشُفين بن علي بن يوسف بن تاشُفين، دافع النصارى الصليبيين الذين استغاث بهم الثائر الخائن الغادر ابنُ حمدين[٢٨]. بعد هزيمته أمام ابن غانية لغزو قرطبة التي دافعت باستماتة وشجاعة، لكنه أدخلهم إليها في العاشر من ذي الحجة سنة(٥٤٠هـ/ ١١٤٥م)، وكان أول ما استباحوا مسجدها الجامع، فأخذوا مصابيحه ومزقوا مصاحفه.

فيذكر أنه كان ضمنها نسخة من مصحف الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ، الذي على ما يبدو كان قد حصل عليه بعض رحالة العلماء الأندلسيين الذين اعتادوا الذهاب إلى المشرق لتلقي العلم، سنة أهل الأندلس.

ولكن البعض يذكر أن هذا المصحف نقل من مسجد قرطبة الجامع إلى مسجد مراكش أوائل أيام قيام الدولة الموحدية. وهذه النسخة من المصحف الشريف، يُذكر أن الذي خطها هو الخليفة الشهيد عثمان (رضي الله عنه) بيمينه، وفيه نقط من دمه. وكان يحتفل بالقراءة فيه كل يوم جمعة في مسجد قرطبة. فهل هذا الذي أخذه النصارى كان نسخة أخرى منه، جرى نسخ مثلها؟

وبعد أن شمل التدمير كل ما في المسجد، دخلوا المدينة، فأحرقوا الأسواق وخربوا كثيراً من معالم المدينة. ورغم كل هذه الشدة وعنف الهجوم ووحشيته ثبت ابن غانيه واستطاع رد هذه الهجمة ودحر وحوشها وخونتها وحافظ على قرطبة، السيدة الأبية والعزيزة الغنية والعروس الحزين.

٢٧- الإحاطة، ٣٤٥/٤، نفح الطيب ٢٠٤/١، ٥٤٨، ٥٦٣، ٦٠٢، ٦٠٦، ٦٠٧.

٢٨- انظر: الإحاطة ٥٤٣/٤-٧٤٣ المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة ٥٣.

و«أدخل ابن حَمَدين النصارى قرطبة في عاشر ذي الحجة من عام أربعين (٥٤٠هـ) فاستباحوا المسجد وأخذوا ما كان به من المصابيح ومزقوا مصاحفه، وزعموا أن منها مصحف عثمان، وأنزلوا المنار من الصومعة (المئذنة) وكان كله فضة. وحُرقت الأسواق وأفسدت المدينة وظهر من صَبْر ابن غانية وشدة بأسه وصدق دفاعه ما أيأس منه، وكان من قدر الله أن بلغ طاغية الروم يوم دخولهم قرطبة اجتياز الموحدين إلى الأندلس فأجال طاغيتهم قداح الرأي، فاقتضى أن يهادن ابن غانية ويتركه بقرطبة في نحر عدوه من الموحدين سداً بينهم وبين بلاده، فعُقدت الشروط ونزل إليه ابن غانية فعاقده واستحضر له أهل قرطبة»[٣٩]

تلك هي قصة المصحف الشريف: القرآن الكريم، هناك في قرطبة الأندلس.

٣٩- الإحاطة، ابن الخطيب، ٤/٥٤٣-٦٤٣.

10

الرسالة النبوية الكريمة

المقصود بالرسالة النبوية الكريمة هي رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل (قيصر الروم) /HERCULES، CAESAR، KING OF THE ROMANS يدعوه وقومه فيها إلى الإسلام. وهنا يرد ما له علاقة بها في الأندلس.

وصل الموضوع في هذه الرسالة - مما هو معلوم - أن الرسول الكريم ﷺ عمل على تبليغ الدعوة الإسلامية لكل أحد وفي كل زمان ومكان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾(المائدة، ٦٧).

فما أن عقد رسول الله ﷺ صُلح الحديبية في ذي الحجة السنة السادسة للهجرة (٦٢٨م)، وانتهى من فتح خيبر، آخر قلاع اليهود في الحجاز، في محرم السنة السابعة للهجرة، حتى بدأ في نفس السنة الدعوة إلى الإسلام خارج الجزيرة العربية.

فوجه رسله إلى الملوك والأمراء والحكام في أنحاء الأرض، يدعوهم إلى الإسلام. وفي أوائل السنة السابعة للهجرة - صيف ٦٢٨م، خرج من المدينة المنورة في يوم واحد ستة رسل يحملون كتبه إلى العديد من الجهات، منهم: هرقل، قيصر الروم، وكسرى إمبراطور الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس حاكم مصر، وغيرهم.

والمقصود في هذه الحكاية رسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل قيصر الروم (حكمه: ١٢ق.هـ - ٢٠هـ = ٦١٠ - ٦٤١م) التي حملها إليه الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي (٤٥هـ). وكان نصها «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أسلمْ يؤتك الله

أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين،

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾»[٤٠] (آل عمران، ٦٤).

وفي القدس استقبل هرقل دحيةَ، رسولَ رسولِ الله ﷺ ، يدعوه فيها إلى الإسلام، عندما جاء هرقل لشكر الله على انتصاره على الفرس بعد الهزيمة المنكرة المجتاحة الفاقرة التي أشارت إليها سورة الروم.

فأخذ هرقل الكتاب وقرئ له، وبعد اختبارات ومساءلات واستقصاء، أعلن متأكداً جازماً حازماً أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً وهو النبي المنتظر الذي بشرت به أنبياؤهم وكتبهم. وكان مما قال: (فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج (أي قادم ظاهر) ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه). وكان هرقل قد سأل عنه، ثم قال: «لئن كنت صدقتني فيما أخبرتني عنه فسيملك ما تحت قدمي هاتين وهذه صفات نبي، أعرف أنه نبي ولكن لاأستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم». لكن هرقل في الحقيقة آثر الملك الذي زال بعد ذلك بنحو عقد من السنين، ولو كان آمن لدام له الملك والقوة والعز في الدنيا والآخرة.

وقد روى العديد هذا الكتاب بسنده، وفيه من أهل الأندلس – وبعضهم نساء – أمثال ابن بشكوال وأبو عمر يوسف بن عبد البر وبقي بن مخلد.

وكان من اهتمام القيصر بهذه الرسالة أن جعلها في قصبة من ذهب، وقد تناقلتها أجيالهم محفوظة معزوزة مكرمة يتوارثها ملوك الروم، وانتقل

٤٠- عن هذه الرسالة، انظر: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله،ص ١٠٧، السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، ص ٢٤٨،٢٥٠، الرسول المبلغ ﷺ صلاح الخالدي، ص١٠٢-١٤٩.

الكتاب إلى ملوك الفرنج في فرنسا ثم إلى ملوكهم في اسبانيا النصرانية في شمالي شبه الجزيرة الأندلسية (الإيبيرية)، حتى استقر عند ملك قشتالة المذكور[٤١]، وقد ذكر العديد من الثقات ذلك.

وهنا تأتي مناسبة ذكر هذا الأمر في حكاياتنا الأندلسية، فقد ذكر السهيلي الأندلسي (عبدالرحمن بن عبدالله، ٥٨١هـ) في كتابه الروض الأنف[٤٢]: أن محمداً بن عبد الملك بن سعيد(٥٠٤ - ٥٨٩ هـ /١١٢٥ - ١١٩٣م)(أو أباه) أحد أعلام أسرة بني سعيد الأندلسيين حكام قلعة يَحْصُب، وهم من أهل الفقه والسياسة والعلم والأدب وهم أصحاب كتاب المغرب في حُلَى المغرب، حين ذهب ابن سعيد هذا لزيارة هذا الملك النصراني أطلعه على الكتاب مكرماً مفتخراً به قائلاً: «فعندي كتاب نبيكم إلى جدي، وأحضر حق من ذهب، فتح وأخرج منه كتاب من رسول الله ﷺ إلى قيصر ملك الروم، وهو جده بزعمه، والكتاب بخط علي بن أبي طالب. قال ابن سعيد هذا[٤٣]: قرأته من أوله إلى آخره كما جاء في حديث البخاري»[٤٤].

ومن المعلوم أن الرسول ﷺ أرسل كتابين إلى هرقل هذا، حملهما جميعا

٤١- وهو ألفونسو السابع ملك قشتالة المشار إليه في الحكاية السابقة، رقم ٩، وهو أدفونش (الفونسو السابع بن رمند، المعروف بالسليطين، تصغيراً له: الملك الصغير، كما كان يطلق عليه أحياناً: الإمبراطور.

٤٢- الروض الأنف، ٦/٣٦٥.

٤٣- وهو: أبو عبدالله محمد بن عبد الملك بن سعيد (٥١٤-٥٨٩هـ)عنه انظر: المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، ٥٣٠ وبعدها المغرب، ٢/١، ٢٠١، ١١١، ٢٣٢/٢٦١ (ترجمة) وذكر الحديث عن الرسالة في الهامش، نفح الطيب، ٢/٣٣٥ وما بعدها (ترجمة)، وذكر رؤيته للرسالة وذكر إشارة السهيلي. أما عن بنو سعيد أصحاب قلعة يحصب، فانظر نفح الطيب ٢/٥٣٣ (ترجمة أبو عبد الله محمد بن عبد لملك وذكر الرسالة نقلا عن السهيلي) نفح الطيب، ٢/٢٦٢-٣٧٤، المغرب ١/١٠٢ (ذكره) ١١١ (ذكره) ٢٣٠-٢٣١، ٢/١٦٠-١٦٢ (ترجمته)، ١٨٦، الإحاطة،١/١١، ٢١٤-٢٢٠، ٤٨٣-٤٨٥، ٢/٤٨٦، ٣/٢١٢ (ترجمته ورؤيته الرسالة، نقلاً عن السهيلي، في كتابه الروض الأنف، ٦/٣٦٥، ٢١٧، ٤٣٣-٤٣٤-٤٥٦-٤٥٨، ٥٧٠-٥٧٢، ٤/٣٤٦.

٤٤- الإحاطة، ابن الخطيب ٤/٣٤٦. وذكر ذلك أيضاً مرة أخرى: الإحاطة ٣/٢١٢، كما نقله المقري في نفح الطيب، ٢/٣٣٥.

الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي، الأول هو المذكور والثاني كان مرسلا من تبوك. وعلى ذلك فأي من الكتابين هو الذي اطلع عليه ابن سعيد، لكن الذي يبدو أنه الأول[٤٥].

والظاهر أن الكتاب خرج من ملوك الغرب إلى غيرهم، وقيل إنه وُجد أخيراً عند أميرة عربية تمتلك أصل الكتاب[٤٦]، فهل هذ الأصل هو الأول أم الثاني؟

٤٥- ورد ذكر الطاغية للرسالة النبوية هذه في: الإحاطة، ٣٤٦/٤. وبدون ذكر ابن سعيد، كما ورد ذكر الطاغية للرسالة بشهادة ابن سعيد في: الإحاطة، ٢١٣/٢، كما يرد ذكر السهيلي لهذا الأمر هنا، نفح الطيب، ٣٣٥/٢ وما بعدها (ترجمته).. وهنا يذكر رؤية ابن سعيد للرسالة واطلاعه عليها وقراءته لها بنفسه حين أطلعه عليها الطاغية ملك قشتالة، كما ترد هنا ذكر إشارة السهيلي بوضوح للرسالة الأنبوبية.

٤٦- الرسول المبلغ صلى الله عليه وسلم: ص١٥٠.

11

وللنفس..
يقظات ووقفات

حين تُبْنَى النفس الإنسانية على الخير الرصين والفطري الأصيل فإنها تتيقظ، حتى لو سَدَرَت في مهاوي الضعف، إذ يصبح الخيرُ لديها أصلاً تعود إليه كلما شطّت وتقوم كلما عثرت، تُذَكَّر فتتذكر، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (الذاريات: ٥٥). وحين يتواصى الناس بهذه المعاني فإن الحياة في ترقٍ مستمر.

ومثلما يمر الأفرادُ بأحداث تردهم إلى الخير وتستثير فيهم نوازع الصلح وتوقظهم وتُفتّق مكامن الفضائل فيهم، فذلك يكون أيضاً مع المجتمع والحياة.

وكم مرة يقترن ذلك بالدعوة إليه والحث عليه وبيان مبانيه، حيث النفوس تهفو للاستماع والاستمتاع والاندفاع. وهي في هذه الأحوال ترى الأمور على رونقها وتدركها على حقيقتها وتراها بحجمها، بعيداً عن الإلفة أو الغفلة أو النسيان. يقوم أهل الهمم بالدعوة إليه ويلم الناس عليه ويُبْذَل لأجله. والتاريخ سجل الأمثلة المتكررة المهورة المنظورة أو المطمورة، التي ادخرتها مضامير الحياة الإسلامية خلال الأجيال على مر العصور.

وأروع ضمان للحفاظ على ذلك والارتقاء به حين يلتقي من أجله العلماء والأمراء، في خيط مُنتظم وعقد مُلتئم ومنظر مُنسجم. وكان العلماء دوماً يؤدون دورهم كاملاً بأعلى مقدار، لأن العلماء هم القوة القوية التي تُمسك المجتمع وتحافظ عليه وترفع به كلما هبط، وتقيمه كلما هوى، وتزينه كلما كَدمته المساقط.

وهذا كله واضح في الحياة الإسلامية وحضارتها، ولشدة وضوحها غدت ظاهرة واضحة، تهاديك وتناديك وتبادلك. والعلماء يبرهنون أنهم حصن المجتمعات المتين وكهفُه الدافئ الأمين، وهم حماته وقادته، يلتحق بركبهم الأمراء، وفي المحن يكون ذلك أبرز.

وفي الحياة الإسلامية الأندلسية تحسها وتشهدها وتعتمدها، وأظهَرُها أيام الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي). وهو قرن زاد الحرجُ فيه والهرج والمرج. لكني أذهب إلى أيام أسبق منه جرت حوادثها، وهي أقل بعداً عن الضوء مهما خفت واختفت منه، بأي مقدار، ذلك اللآلئ.

واستقامت الحياة فيه على هذا المنوال في أيام أبكر، يوم كان الحَكَم (١٨٠ -٢٠٦هـ = ٧٩٦ - ٨٢٢م) بن هشام بن عبدالرحمن الأول (الداخل)، أميراً للأندلس. وهو الذي أنحى عليه العديد من المؤرخين بالوصف الرديء واتهموه، أمثال: ابن حزم الأندلسي[٤٧] (٤٥٦هـ) وابن حيان القرطبي[٤٨] (٤٦٩هـ).

وبسبب ذلك قامت عليه مواجهة (٢٠٢ هـ/٨٠٨م) في الربض (الحي = المحلة) الجنوبي لقرطبة المسمى ربض شقنده[٤٩] (SECUNDA) على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير (GUADALQUIVIR). وكان فيهم الفقيه طالوت بن عبدالجبار المعافري[٥٠]، الذي اختفى مدة عام في بيت يهودي، ثم خرج من عنده ولجأ إلى وزير للحكم ليكون وسيطاً للتفاهم والانتهاء من هذه الحال. ولما انتقل الفقيه إلى بيت الوزير وشى به عند الحكم الذي عرف قصة الفقيه. ولكن الوزير الذي ظن أنه أتى بصيد ثمين أوقع نفسه في الفخ، ليلقى شر أعماله. حيث إن الحكم - لشهامته - عنف

٤٧- عنه انظر مثلا: نفح الطيب، ٣٤٢/١.

٤٨- عنه انظر مثلا: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ٣٥٦/١-٣٨١ المُغرب، ١١٧/١، التاريخ الأندلسي، ص ٢٦٦.

٤٩- عن هذه الحادثة، انظر: نفح الطيب، ٣٣٩/١، الحلة السيراء، ابن الأبار، ٤٤/١ وما بعدها، المُغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ٤٢/١ وبعدها، أعمال الأعلام، ١٥/٢. نهاية الأرب، النويري، ٣٧/٢٢. كذلك: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، ص٣٢ وما بعدها.

٥٠- عنه انظر: المغرب، ٤٣/١، التكملة، ابن الأبار، ٣٤٥. الذيل والتكملة، المراكشي، ١٥٢/٤، نفح الطيب، ٦٣٩/٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٢٥٨/٨-٢٥٩. التاريخ الأندلسي،ص ٢٤٢.

الوزير وأنبه قائلا له: إن اليهودي حفظه سنة وأنت المسلم فضحته بعد أن ائتمنك، فلا كنت بعد اليوم في أعواني، وعفا عن الفقيه.

وذكر أن الأمير الحكم ندم أشد الندم على ما أوقع في أهل الربض. «ولما دنت وفاته عاتب نفسه فيما تقدم منه عتاباً وتاب إلى الله متاباً ورجع إلى الطريقة المثلى وقال إن الآخرة هي الأبقى والأولى، فتزين بالتقوى واعتصم بالعروة الوثقى وأقر بذنوبه واعترف، فمات على توبة من ذنوبه وندم على ما اقترف[٥١]».

٥١- عن ندمه، انظر: المغرب، ١/٤٣، الحلة السيراء، ابن الأبار، ١/٤٦. نفح الطيب، المقري، ١/٣٤٣،٣٤٢.

12

استغاثة أندلسية حرة

وهذه الحكاية من حكايات الأمير الأندلسي الحكم نفسه، لكنها من نوعٍ تُمثّل موقفاً وحكاية اعتبرها المقري من بديع أخباره(٥٢)، ذلك أن امرأة أندلسية - لعلها كانت مدافعة مقاتلة - ضمن الجند الذين واجهوا اعتداءاتهم، أي الأعداء في حملات إسبانيا النصرانية على الأندلس، أسرها الأعداءُ وآذوها في منطقة وادي الحجارة ٥٧ ميلاً (كم) GUADALAJARA شمال شرق مدريد اليوم.

وكان القاضي الشاعر عباس بن ناصح الجزيري قريباً من موقع أسرها، فسمعها تستغيث وتقول: وا غوثاه بك يا حَكَم لقد أهملتنا حتى كَلِبَ العدو علينا فأيّمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها فذكرت له قصة أسرها، فأبلغ الشاعر الأمير بقصيدة استغاثة، كان منها:

تداركَ نساء العالمين بنصرةٍ فإنك أحرى أن تُغيثَ وتَنْصُرا

فما كان من الحَكَم إلا أن نادى بالجهاد والاستعداد وجهّز جيشاً قاده بنفسه، وسار إلى المكان، وأنقذ المرأة المسلمة وجميع أسرى المسلمين في تلك البلاد، وقال لها: هل أغاثك الحكم، فقالت: نعم، ودعت له.

ولعل هذه الحكاية تقترن بأمثالها من مثل قصة المرأة المسلمة التي استغاثت بالخليفة العباسي المعتصم بالله، قائلةً مناديةً مستنجدةً: وامُعتصماه - وهي كثيرة - فأنجدها بحملة عسكرية. وهذه وأمثالها وأكبر منها كثيرة في تاريخنا.

٥٢- نفح الطيب، ١/٣٤٣.

ويبدو أن هذا الأمير (الحكم الأندلسي) استقام أمره بعد حادثة الربض (الحكاية السابقة)، حيث ندم على ما ارتكب في حق العلماء والناس، وأكَلَه الندمُ على ذلك[٥٣]، ولقد مات كمدا، وهو يطلب من الله سبحانه وتعالى الغفران.

٥٣- عن ذلك انظر: الحكاية السابقة، حاشية رقم ٥.

13

مجتابي النّهار لا الثّمار

صفحات حضارتنا متعددة الأوصاف بخيريتها، متعالية الهيئات بصفحاتها، متنوعة الطعوم بنكهتها، تسقى بماء واحد. ونكهة اليوم هو التواضع للعلم والرضوخ له ولأهله، حتى لو أتى من طالب لأستاذه، وأمثاله. ولذلك فيوم استقامت على الطريقة أتت بكل تلك الثمرات، أُكُلُها طيب وظلها دائم. ولهذا أمثله كثيرة، وهي حقيقة مُستنبط منها.

وهكذا غدا الذهاب إلى المشرق - من قبل أهل الأندلس، نساءً ورجالاً - هدفاً وأملاً وأمنيةً، تهفو إليه قلوبهم وتتسابق مواكبهم وتتدافع مناكبهم. والطريق منها وإليها يموج بالقاصدين. كلهم في شوق شديد جديد أكيد، مهما تنوعت نوازعهم، ومن النادر أن أحداً من علماء الأندلس - بل وعمومهم، ما استطاع ذلك - حرم نفسه منه. وهذا رغم بُعد الأندلس وصعوبة السفر يومها وتكاليفه، وانفصال الأندلس سياسياً عن المشرق البعيد.

يذكر القرطبي[٥٤] في تفسيره عن قاسم بن أصبغ البياني الأندلسي (القرن الثالث - الرابع الهجري)، ونقله المقري[٥٥]، أنه حين ذهب (البيّاني) من الأندلس إلى المشرق للحج أو العلم أو التجارة، درس على العديد وتلقى العلم في مجالس كثيرة وأخذ الفهم من أفواه العلماء في البلدان التي مر بها، كعادة أهل الأندلس الذين يحنون لزيارة المشرق، موطن الوحي، تجارة وتعلماً وحجاً، وقد تجتمع كلها، وغالباً هي كذلك.

وفي عودته إلى الأندلس، نزل القيروان (تونس) وذهب إلى مسجدها لأخذ العلم من منابرها. فيقول: لما رَحَلَتُ إلى المشرق نزلت القيروان، فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد، فقرأت عليه يوماً حديث النبى

٥٤- تفسير القرطبي، ٢٨٧/١، والقرطبي هذا ، هو: أبو عبدالله القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجى الأندلسي (٦٧١هـ = ١٢٧٤م)، صاحب التفسير المشهور: الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي.

٥٥- نفح الطيب، ٤٨/٢.

أنه قدم عليه قوم من مُضر من مُجتابي النّمار[٥٦]. فقال: إنما هو مجتابي الثمار، فقلت: إنما هو مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لي: بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا! أو نحو هذا. ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ - لشيخ كان في المسجد - فإن له بمثل هذا علماً، فقمنا إليه فسألناه عن ذلك، فقال: إنما هو مجتابي النمار، كما قلت. وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة، جيوبهم أمامهم. والنمار جمع نمرة. فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: رغم أنفي للحق، رغم أنفي للحق،وانصرف.

ومن مثل هذا التواضع للعلم والاستسلام لوجه الحق فيه والانقياد إلى صوابه لدينا الكثير من الأمثلة.

٥٦- مجتابي النمار: لابسيها، والنمار كل شملة مخططة من مآزر الأعراب، كأنما أخذت من لون النمر.

14

الرأيُ حُرٌّ..
وَقَبُولهُ برّ

حين ذهب القاضي الأندلسي، قاضي الجماعة بقرطبة، منذر بن سعيد البلوطي[٥٧] (٣٥٥هـ/ ٩٦٦م) إلى المشرق للحج والعلم وغيره، وعند مروره بمصر جرى له في أحد مجالس العلم فيها أمرٌ طريف، قال: أتيتُ، وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر، يملي في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون، حيث يقول:

خليليَّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ
تُبَكّي على نجدٍ لعلّي أُعِينُها
قد أسْلمها الباكونَ إلا حمامةً
مطوقةً باتت وبات قرينُها
تجاوبها أخرى على خيزرانةٍ
يكاد يدنيها من الأرض لينُها

فقلت له: يا أبا جعفر، ماذا، أعزك الله تعالى، باتا يصنعان؟ فقال لي: وكيف تقول أنت يا أندلسي؟ فقلت له: بانت وبان قرينها، فسكت وما زال يستثقلني بعد ذلك، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه عني وعاد إلى ما كنت أعرفه منه.

ومن ذلك أيضاً أن يحيى بن حكم الغزال (٢٥٠ هـ/ ٨٦٤م)، الشاعر الأندلسي والحكيم الدبلوماسي[٥٨] كان يدرس الشعر على الشاعر القاضي عباس بن ناصح الجزيري، قاضي الجزيرة الخضراء[٥٩]، الذي كان يفد

٥٧- عن المنذر انظر: المغرب في حلى ا لمغرب، ١/١٨٣، ١٧٩، نفح الطيب، ١/٣٦٨-٣٧٦ (أخباره وترجمته) ، ٢/١٦-٢٢(ترجمته)، نفح الطيب، ١/٢٧٢ (من كتاب المغرب وليس موجوداً في المطبوع (أزهار الرياض، المقري، ٢/٢٧٢-٢٨٩،٢٨٢، ٢٩٤-٢٩٧ جدوة المقتبس، الحميدي، ٣١٥ (وبات قرينها). تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي، ٤٠٤ (وبات قرينها). قضاة الأندلس، التباهي، ٦٦، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١/٤٦٨-٤٧٠، الروض المعطار، ابن عبد المنعم الجِمَيري، ٩٥، ٤٣٦، وسير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٦/١٧٣-١٧٨، عبر الذهبي، ٢/٢٠٢-٢٠٣، الأعلام، الزركلي، ٧/٢٩٤.

٥٨- مر الحديث عن الغزال في الحكاية رقم ١.

٥٩- مر ذكر الجزيري في الحكاية رقم (١٢)، وانظر عنه مثلا: المغرب، ١/٣٢١.

على قرطبة ويأخذ عنه أدباؤها، ومرت عليهم قصيدته التي أولها:

لَعَمْرُكَ ما البلوى بعارٍ ولا العَدَمْ إذا المرء لم يَعْدَم تُقى الله والكرمْ

حتى انتهى القارئ إلى قوله:

تجافَ عن الدنيا فما لمُعَجّزٍ ولا عاجز إلا الذي خُطَّ بالقلم

فقال له الغزال، وكان في الحلقة، وهو إذ ذاك حدثٌ نظّامٌ متأدبٌ ذكي القريحة: أيها الشيخ، وما الذي يصنع مُفَعّل (معجز) مع فاعل (عاجز)؟ فقال له: كيف تقول؟ فقال: كنت أقول: فليس لعاجز ولا حازم، فقال له عباس: والله يا بني لقد طلبها عمك فما وجدها.

وهنالك مواقف كثيرة متميزة في كل موقع وموقف وحال، مما يوضح أن المجتمع الأندلسي كان بكل فئاته متفاهماً ومتفتحاً، يقبل الحق ويقف عنده، قابلاً لآراء الآخرين، متسامحاً فيما بينه، توصلا إلى الرأي الأرشد والأوجب والأصوب، بل وحتى في أوقات الضعف، وأوقات المشاغل والمشاكل، لم تغب هذه الصور.

ومن طرائف الأمثلة في هذه الأمور، ما جرى من نقاش وتداول وأخذٍ وردٍ حول شراء أرض موقوفة على إحدى كنائس النصارى الأندلسيين من أهل الذمة في قرطبة، حيث انتهى الأمر إلى رأي جامع، توصل إليه مجموع الفقهاء، وأخذ به الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (٣٩٢هـ ١٠٠٢م)، وتم ذلك في جو يدل على ترقٍ فريد وحكمة متبادلة وسعة في النفوس، وكان هو القرار الصائب بعدم جواز شراء هذه الأرض[٦٠].

وهكذا كان المجتمع الأندلسي راعياً لكل من عاش في ظله، رعى حقوقهم، شاملاً بذلك المسلمين وغيرهم.

٦٠- راجع: التاريخ الأندلسي، ص ٥٧٥.

15

عِزّة العلم بأهْله

وفّرت حضارتُنا وحياتُها مواصفات وأعرافاً ورسوماً، أصبحت سمتاً كريماً، أرست قواعده وأقامت أصوله وأعلته، بناءً متميزاً. عرفت به بكل الميادين والأفانين والموازين، ثبتت لديهم، وأصبحت نموذجاً يحتذى ومثالا يقتدى وأعلاماً بها يُهتدى. غدت من المقومات العلمية والظواهر الحياتية في حضارتنا، حيث العلم فيها فريضة، كما أن العلم للعمل.

قَدَّمت حضارتُنا - في بلدانها كافة، ومنها الأندلس - أعلاماً عالية من الرجال والنساء، الذين أسهموا فيها. نجد في ذلك كتباً جعلت هذا موضوعاً لها، وهي كثيرة، من مثل كتاب: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، يقع في جزءين، لعالم الأندلس والغرب الإسلامي: أبو عمر يوسف بن عبد البر (٤٦٣ هـ = ١٠٧١م)، وكان هذا الكتاب جواباً على سؤال سائل[٦١]. بجانب ما يُذكر من تلك المواصفات حين الحديث عن الأعلام كافة، لدى ترجمتها في كتب الأعلام الأندلسية، وهي بالعشرات. فمواقفهم الكريمة واعتزازهم بعلمهم وبأنفسهم ومكانتهم رائعة مضيئة رفيعة، فقد عرفت الأندلس - مثل غيرها من بقاع هذه الحضارة - منه الكثير.

والأمثلة في ذلك متنوعة في كل العصور، حتى في العصور الصعبة من مثل عصر الطوائف في الأندلس (القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي)، فمن مأثور الأمثلة في هذا ما ترويه كتبُ التاريخ عن العالم اللغوي المذكور بالديانة والفقه والورع، أبي غالب تمام بن غالب المعروف

٦١- لدينا كتب وكتابات ورسائل أخرى- وبعضها مطول- كانت جواباً لسؤال من أحد، قد لا يكون بينه وبين الكاتب والمؤلف والعالم أية معرفة، من مثل: ما جرى لابن حزم الأندلسي(٤٥٦هـ = ١٠٦٤م) (في كتابه طوق الحمامة في الألفة والإيلاف طوق الحمامة، ١٤ وما بعدها)، وكذلك في جوابه على فضائل الأندلس التي وردت في نفح الطيب، ٣/١٥٦-١٧٩، بعنوان رسالة ابن حزم في فضل الأندلس، وهذه ظاهرة مهمة تلفت الانتباه في العناية باستيفاء الجواب. كل ذلك بدافع الإيمان بالله تعالى وكتابه ورسولهﷺ وهو دليل على البناء الإسلامي القوي على منهج الله تعالى وتحري الالتزام به بتقوى وحرص وبذل.

بابن التياني[٦٢] ، القرطبي الأصل (المَريّة، ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤م)، أنه صنف كتاباً جليلاً، وكان يومها يسكن مدينة مُرسِيّة [٦٣] شرقي الأندلس على البحر المتوسط. ولما وقف على هذا الكتاب أبو الجيش، مجاهد بن عبدالله العامري (٣٤٦ هـ/ ١٠٤٤م) أرسل إلى ابن التياني ألفاً من الدنانير الأندلسية مع كسوة، كي يزيد التياني في ترجمة الكتاب عبارة: مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد، لكن التياني ردّ عليه هديته، قائلاً: كتاب صنفته لله ولطلبة العلم، أصرفه إليه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً! فكان أن زاد التياني في عين مجاهد وعَظُم في صدور الناس. كما يُذكر أن التياني قال أيضاً بهذه المناسبة: والله لو بُذِلَت لي الدنيا على ذلك، ما فعلت ولا استجزت الكذب، فإني لم أكتبه له خاصة، لكن لكل طالب عامة. فأعْجَب لهمة مجاهد وعلوها، وأعجب لنفس هذا العالم وعزتها. وهكذا ينبغي أن تكون الهمم وهذا ما يجب على العلماء.

وبِضُمَّر الأقلام يبلغ أهلُها ... ما ليس يبلغ بالجياد الضُّمَّرِ

وهكذا كانت لهذه المعاني عند العلماء الأندلسيين مكانةٌ وأهميةٌ. وبهذا المستوى كان فعلها في كل أوان وميدان، وهي أمضى من سنان. إذن، فليس عجباً أن يكون قلم الكاتب الصادق الأصيل أمضى من سنان المحارب النبيل.

وبهذه الدوافع والبناء والقواعد، نجد ظواهر كثيرة جداً، غريبة وعجيبة، وهي عامة مألوفة، دعتهم إلى التوسع في هذه الظواهر، إحدى ثمار ذلك البناء، الذي ملأت ظواهره العلمية الفاضلة جوانب المجتمع، وسادت وأصبح لها الاهتمام والمكانة والامتياز، حتى جرى التنافس فيها.

٦٢- عنه انظر: المغرب في حُلى المغرب، ١/١٦٦. نفح الطيب، ٣/١٣٢. الكتب والمكتبات في الأندلس ص ٣٢.

٦٣- وهي مدينة بناها المسلمون، واشتقوا اسمها من وظيفتها، حيث كانت ميناء ومرسى للسفن.

هذا وغيره يُنبئ بوضوح كامل وإضاءة قوية وتعبير مسموع عن حقيقة هذا المجتمع وبنائه الرصين ومتانة مقوماته الأصيلة. وهو لا يتأتى إلا بالبناء على هذا المنهج الرباني الكريم السليم.

16

العلم.. بناء وثمار

لقد غدا العلم - بمناراته الرائعة المنيرة المتسعة - شاملاً واضحاً، جاذباً لكل أحد من النساء والرجال والأطفال. وظهر في المجتمع المسلم علماء غاية في القوة والعلم والسعة، وهؤلاء كثيرون جداً. ونذكر هنا، على الاختصار، بعضاً منهم وشيئاً من أخبارهم ونتاجهم وعلمهم.

فهذا قاضي الجماعة بقرطبة[٦٤] أبو المُطرِّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْس (قرطبة، ٤٠٢ هـ = ١٠١٢م)، كان هو نفسه من منارات العلم في المجتمع، وله المؤلفات الكثيرة، تعد أجزاؤها بالمئات! وكان صاحب مكتبة ضخمة! وحيث إن كثرة المكتبات العامة والخاصة في الأندلس كانت سائدة، بحيث يُذكر أن المكتبات العامة في قرطبة وحدها بلغت سبعين مكتبة، أما الخاصة فيندر من لا يملك مكتبة في بيته - نساءً ورجالاً - صَغُرت أو كَبُرت.

وكان في مكتبة القاضي أبو المطرف من ذخائر ونوادر الكتب، يُنْفِق عليها إنفاقاً عجيباً، وكان لديه ستة وراقين، ينسخون له دائماً، وقد رتب لهم على ذلك راتباً معلوما. فما إن يسمع بكتاب حتى يعمل على شرائه، وإلا يستنسخه. وما كان يسمح بسهولة إعارة كتبه خارج المكتبة، فهي مفتوحة للباحثين دون قيود.

ومن جمائل حكاياته في ذلك، أنه أقام بناءً خاصاً للمكتبة على أروع هندسة متقدمة مترقية، دُرَّةً معمارية، بحيث إذا وقف أحد في أي من أبوابها، يرى كافة رفوفها، ذات الألوان المتباينة، ربما حسب موضوعاتها. وفيها قاعات للجلوس، يجلب من رفوفها الكتب المطلوبة للباحثين، شيوخاً ومؤلفين ودارسين، مع توفير كافة الخدمات لهم. وكان إذا طلب أحد أي شيء، يقدَّم إليه، من ضيافة وعُدّة الكتابة ومستلزمات الراحة. وإذا رغب أي أحد باستعارة كتاب، لا يتيسر له ذلك، فإذا ألح في الأمر كلف أحد

٦٤- قاضي الجماعة بقرطبة : مصطلح قضائي أندلسي، ولعله يعدل- كلياً وجزئياً- قاضي القضاة في المشرق الإسلامي.

النساخين لديه أن يستنسخ منه نسخة، ويهديها له مجاناً، ولا يقبل أي مال مقابل كل تلك الخدمات، وكان هو يرعاها بنفسه، وهو على علم وفير. كان يملي من ذاكرته ارتجالاً جميع دروسه في مسجد قرطبة الجامع (أو جامعتها العتيدة)، وبين يديه في المجلس مئات الطلبة والدارسين والشيوخ، يتلقون عنه ويكتبون ما يمليه عليهم، وكأنه كان يقرأ مكتوباً من ورق[٦٥].

ومن نوادر - بل وغرائب - حكاياتهم في امتلاك مكتبة خاصة واقتناء الكتب فيها، أن أصبح جمع الكتب والحصول عليها ميداناً للمنافسة، ليس فقط للدراية والرواية، بل وكذلك لإشباع جماح الهواية. فيذُكر أن أحدهم الذي لا تكون عنده معرفة واسعة، واهتماماً كبيراً، وعلماً ظاهراً، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب مهمة، يحاول اقتناء ما يجملها.

ومن ذلك أن أحد العلماء أقام مرة بقرطبة ولاَزَمَ سُوق كتبها، يترقب حصول كتاب، له بطلبه اعتناء، إلى أن وقع ذلك وبخط جيد وتسفير (تجليد) مليح، ففرح به أشد الفرح، وجعل يزيد في ثمنه، فيرجع إليه المنادي بالزيادة، إلى أن بلغ فوق حده، فقال له: أرني من الذي يزيد في هذا الكتاب، حتى أوصله إلى هذا الثمن، فأراه شخصاً عليه لباسُ أهل العلم، فاقترب منه وقال له: أعزَ الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فرد عليه، لست بفقيه، ولكن لديَّ خزانة كتب، احتفلتُ بجمع الكتب لها، وأعجبني هذا الكتاب أن يكون فيها، واستحسنته غير مبالٍ بثمنه، والحمد لله على ما أنعم من الرزق، فهو كثير[٦٦]. ثم تنازل للعالم عليه وربما اشتراه فأكرمه به.

وهكذا حتى كان تبادل الهدايا بالكتب من أفضل ما يُهْدى، بجانب ما يُقْتَنى ويُعْتَنَى ويباهى به.

٦٥- انظر عن ذلك: الكتب والمكتبات في الأندلس، ٣٠، ٤٧، ٤٩، ١٧٨، ١٨٠، ١/ ٤٦٣.

٦٦- نفح الطيب، ١/ ٤٦٣.



صورة جوية لمسجد قرطبة الجامع ويبدو فيها المسجد كاملاً مع الصحن الخارجي والصومعة (المئذنة. وهذا المسجد يقع في الجهة الغربية من مدينة قرطبة، على الجهة اليمنى من النهر (الوادي الكبيرGUADALQUIVIR) وهو النهر الوحيد في الأندلس (شبه الجزيرة الإيبيرية) الذي يحمل اسماً عربياً. وفي الجهة الأخرى من النهر يبدو ربض (حي) شقندة.

17

إنه ليس كهيناً

عرفُ أهلُ هذه الحضارة الإسلامية - مما عرفوا به - بالشجاعة المتنوعة، في ميدان نصرة الحق والصبر عليه ونجدة مواقعها، لا سيما في المواجهات والمعارك الحربية. وهي مرئية وكثيرة وشاملة، لكن لابد من إيراد أمثلة أو حكايات منها في الأندلس، وهي كثيرة بألوانها في كافة الوُجهات والميادين.

أتوقف هنا عند واحدة، وهي جماعية، وكل أهلها كذلك. وهي ثمرة بناء الفرد والمجتمع المسلم الذي لا شك هو بناء أفراد، بمجموعهم يكونون هذا اللون من المواقف. ألتقط هذه اللقطة من معركة بلاط الشهداء، التي لا نعرف إلا صورها، مشوهة مقلوبة مُدمّرة.

وبلاط الشهداء معركة تمت في قلب فرنسا، جنوب باريس نحو ٢٠٠كم، بين مدينتي تور وبواتييه (تور – بواتييه TOITERS–TOURS)، وهي معركة شهيرة في التاريخ الإسلامي الأندلسي والأوروبي على السواء. وقد جرت بين المسلمين بقيادة التابعي الجليل المُقدَّم عبدالرحمن الغافقي[٦٧] - والي الأندلس - والجيش الفرنجي بقيادة شارل مارتل (قارْلُهْ) CHARLES MARTEL. وتعتبر من المعارك الفاصلة في التاريخ الإنساني العام كذلك.

وقد جرت بين هاتين المدينتين - وبهما سُميت معركة بلاط الشهداء أو بأحدهما - والمسافة بينهما نحو تسعين كيلومتراً، في ميدان متسع تدل عليه المسافة، وكانت في أواخر شعبان - أوائل رمضان ١١٤ هـ = تشرين الأول - الثاني، أكتوبر - نوفمبر ٧٣٢م، مستمرة نحو ١٠ أيام[٦٨]. وكانت معركة

٦٧- عن الغافقي انظر: نفح الطيب، ١/٢٣٥-٣، ٤٨٠، ٢٩٩، ٢٨٨. ١٦/٢٣٦، ١٥. تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضين ٢١٠ جذوة المقتبس، الحُميدي ٢٤٢، الأعلام، الزركلي، ٣/٣١٢، فجر الأندلس، حسين مؤنس، ٣١٩ وبعدها. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان، ١/١/٨٤-٩١، ٩٦، ١١٥.

٦٨-Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe during the Umayyad period".121.

والترجمة العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية، ١٦٧، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة: ١٩٣ وبعدها، البيان المغرب، ابن عذارى، ٢/٢٧، العبر، ابن خلدون، ٤/١١٩، نفح الطيب، المقري، ١/٢٨٨، ٢٩٩، ٣/١٥-١٦، ١٨ وبعدها. أعمال الأعلام، ص ٦، فجر الأندلس، حسين مؤنس ص٣٢٠ دولة الإسلام في الأندلس ١/١/١٠٠-١٠١.

حامية كثيفة عنيفة ومتفاوتة في كل الإمكانيات بين الطرفين، المسلمين والفرنج: العُدّة والعدد وطبيعة الأرض والتربة وتضاريسها وحالتها، لاسيما وقت الخريف الممطر، ونوع الأسلحة وطريقة النزال ومكان التزود، والميدان في أرض العدو. وكل هذا وغيره كان لصالح الفرنج الذين جمعهم وانتقاهم واختارهم شارل مارتل من كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بجانب أمّداد كثيرة من جوانب أخرى. واعتبرها معركة موت لا حياة بعده. وقد سار لها الجيش الإسلامي مسافة - من عاصمته قرطبة - قرابة ١٥٠٠ كيلومتر. واستمرت المعركة نحو عشرة أيام، وفي تاسعها أو عاشرها استُشهد والي الأندلس وقائد المعركة وبطلها المقدام الأمير المجاهد عبدالرحمن الغافقي.



لوحة ٢: استشهاد عبدالرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء، ١١٤هـ =٧٣٢م

انسحب الجيش الإسلامي حتى تنفسوا بارتواء واستنشقوا الصُعَداء، ليحسبوا ذلك نصراً، طبلت له الكتابات الأوروبية. فأبى الجيش الفرنجي إلا القعود ولم يلاحق الجيش الإسلامي أو يتبعه أو يتابعه، لأنهم فهموا تماماً وعلى ثقة ومعرفة أكيدة أنه لا بد أن تكون هذه خطة عسكرية، وأنهم سيكرون عائدين إليهم وأن الأمر كمين، ولم يكن في حقيقته كميناً بحال.

وهكذا فإن شجاعتهم -بعد عون الله والإيمان بدعوته والالتزام بتعاليمه- حمتهم من إبادة محتملة، بل قائمة وماثلة. وبذلك تأكد لدى الفرنج أنه ليس كميناً.

18

إنهم يخافونه ميتاً

أينما تُنَقّب في تاريخنا - بجوانبه وامتداداته وتنوعاته - تجد روائع باهرة وإشراقات آسرة، كان لها أن تكون سائرة. وقد يَعْجَب كل أحد: كيف ولماذا غابت هذه عن الذاكرة؟

وللوصول إليها لابد من جهد وتنقيب وتنبه، يقوم على الصبر والمعرفة والخبرة. وتجد هذا مركوناً أحياناً، ربما لم يجر التوجه إليه، أمام الحُجُب والأغشية والأغطية التي حجبته عن الرؤية العابرة، وأحياناً حتى المتريثة المكيثة. وهي، مهما بدت صغيرة مهمشة، لكن لها مدلولاً مُدْركاً قريباً أو محبوكاً بعيداً، له قيمة عليا في معرفة أبعاد الحياة الغائرة، بمعانيها ومبانيها، وكرائمها، متأصلة في مراميها. تدل عليها طبيعتها القوية الغائرة، لا تنفك تصنع الصيغ الكريمة البعيدة عن توقع توفرها بهذا الشكل الأنيق، وهي كثيرة منيرة وضيئة متدفقة.

ولهذه الحكايات موضع مناسب وموقع متناسق وبيان رائق، يستدعي إظهارها. وهذا جانب يتعلق بظواهر حاضرة لحضارتنا. إنها محمية، من الصعب اختراق مجتمعها الذي يموج برسوم وأعراف، تمثل طابعاً لها قوة ظهور عميقة الجذور، أصالةً ودلالة وتوجهاً. وهي أثر من البناء الإسلامي لهذه الحضارة الكريمة المنيرة الربانية.

وهذه المواصفات يعرفها الآخرون، وعلى ضوئها يتصرفون، وهي ظواهر كثيرة، من مثل صدق المجتمع والتزامه بالقيم المضيئة والشجاعة البارعة التي لا تغلب ولا تهزم. وهي عصية على ذلك كله وما يجري مجراه، وذلك لابتنائها وقيامها على عقيدة التوحيد الصافية الكريمة وشريعتها الإنسانية الرائعة، التي أنبتت هذه الصيغ الفاضلة التي تفتقدها أية حضارة أخرى. فأمدت هذه المعاني مبانيها في كافة الأحوال، وإن نزلت أحياناً، أو انحرفت زماناً، أو ضعفت مكاناً، لكنها دوماً تعود لأصلها وبجهدٍ كبير أو غير كبير، حسب الأحوال والظروف.

وما مضى في الحكاية السابقة يصلح شاهداً عليه، لكن القصة التالية، فيها لهذا الأمر شاهد ومدلول، وهي قصة الفرس الأندلسي.

وهذه القصة من النوادر المهمة العجيبة، وهي تتعلق بهذا الفارس، الذي لم يكن فريداً، رغم مكانته. إنه محمود بن عبدالجبار بن راحلة، أحد بني طريف من مصمودة - أيام الأمير عبدالرحمن الأوسط، ٢٠٦ - ٢٣٨هـ = ٨٢٢ - ٨٥٢م - الذي واجه من القلة من رفاقه ملك ليون LEON[٦٩] ألفونسو الثاني ALFONSO (١٧٥ - ٢٢٨هـ = ٧٩١ - ٨٤٢م)، ومعه فرق من جيشه. وجرت بينهم معركة حامية قوية غير متكافئة (٢٢٥هـ = ٨٤٠م)، قاتل فيها ابن راحلة بشجاعة فائقة عجيبة متألقة. ورغم ذلك لم يستطيعوا النيل من ابن راحلة، لكنه - ويا للأسف الكبير - قتل بطريقة غريبة نادرة غير متوقعة، وبلا سيف أو نزال أو قتال، وهكذا جرت فجأة.

والوحيد من كتاب مصادرنا الذين رووا هذه الحكاية في كتبهم (المغرب في حُلَى المَغْرِب) أسرة بني سعيد، وتمت صياغته على يد آخر هذه السلسلة الكريمة الأدبية العلمية التاريخية: علي بن موسي بن سعيد الأندلسي (٦٨٥هـ = ١٢٨٦م).

ذلك أن فرس ابن راحلة جمح به حين كان يحارب ألفونسو وجيشه، فاصطدم بشجرة بلوط فكان فيه حتفه. وبقي مستلقياً وهو ميت ولا يجرؤ أحد من فرسان ألفونسو على الاقتراب منه. فوقفوا فوق أجمة (مرُتفع) بعيدين، خوفاً أن تكون حيلة منه أو كميناً لهم. وهذا هو نصه: «بقي (ابن راحلة) مُجَدّلاً في الأرض حيناً، وفرسان النصارى قيام على ربوة يهابون الدنو ويخافون أنها حيلة منه[٧٠] وبعد انتظار طويل اقتربوا بخطى بطيئة متئدة مترددة حتى تأكدوا أنها ليست حيلة».

٦٩- مدينة ومملكة في شمال إسبانيا النصرانية.

٧٠ - المغرب: ١/ ٨٤.

وهكذا ترى مثل هذه المعاني الرفيعة القوية البديعة في كافة الميادين، لا ترى فيها فاقعاً ولا تخلفاً ولا ضعفاً ولا تردياً. ذلك ما قدمه المجتمع المسلم في جوانب الحياة المتعددة وميادينها المتنوعة، فانظر وتملَّ واعتبر.

وقد تقدمت في هذه الحكايات ألوان الأنماط البارعة من الأحوال في قصص رويت في الكتب الأمهات، والمصادر الأصيلة والكتابات الموثقة تنوعاً، فيها من جوانب الحياة الكثيرة في كافة الميادين، للنساء والرجال، والأطفال، ولكافة أهل المجتمع، خلال القرون والسنين والأحوال.

٧

19

علماء
الهمة والعزيمة

مجتمعنا الإسلامي الكريم وحضارته يموج بالصيغ العزيزة الباهرة بكل ألوانها وصيغها. إذا مررت بها كأنك في بستان رائق، تنوعت أزهاره وتضوعت رائحته، وما غاب المسك عن ساحته عموماً، يعجبك ذكر ذلك وتُكرره، مُتفوحاً ناشراً عطراً.

أعد ذكر نعمان مراراً فإنه		هو المسك ما كررته يَتَضوّع

أثمرت طُعوماً غذاء شفاء، وهو يحدثك عن نفسه دون إعلان وبلا ادعاء، الذي ليس من طبيعته

والمسكُ ما قد شفّ عنه ذاتُه		لا ما غدا ينعتُه بائعهُ

وكلما وادعته أو داعبته وناغيته ظهر طيبه فواحاً وزكت رائحته وتناثرت وتطايرت باهرة أخّاذة مترامية.

كل هذا مشتق من واقع الحياة الإسلامية وحضارتها، في عالمها الواسع، كلما أخذت بشرعه. وللأسف فإن حقائقها ما زالت بحاجة إلى سبر غوره والنظر في أعماقها وإحسان قراءتها والتأني في فهمها. ولذلك فإن الحديث عنها لا تغنيه روايتها وسردُها ورؤية ومعرفة ظاهرها، والبحث عنها في النصوص المتوفرة والمنتظرة، حيث ضاع الكثير من ثروة أصيلة كانت ملكاً له.

ذلك مهم أساس، لكن لابد من تأصيله كله، دراسة وفهماً وتقديماً. وأنت واجده في عموم حضارتنا الفاضلة خلال مسيرتها، وفي الأندلس خصوصاً، لتريك عجائب أنشأها ذلك البناء الرصين لمجتمعها المتحضر، حتى ليعجب الدارس منبهراً بتلك النماذج، التي صنعها هذا المنهج ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٨).

فكان بناؤه نسيج وحده، جمّاعاً للخير من كل أطرافه، يدعك تبحث عن سره المكنون، يوقفك عنده، لتستضيء به. كله تراه واقعاً، أفضلُ ما تقرؤه سلوكاً في أهله، تزيّوا به خُلُقاً وتعاملاً بلا افتعال، تربية وبناء بلا مثال

ابتداء، تفتقت عنه حياتهم ثمارا كريمة حتى لكأنه خلقةً وسليقةً وفطرةً. فقس على ذلك أمر الحياة الإسلامية في حركتها الحية وبنائها الإنساني الوديع الرفيع. ومن الواقع الحياتي نستقي أروع الأوصاف ونستخرج أرفع الأحكام، عالية مرفرفة في عالم مجتمعاتنا الكريمة عموماً، وفي الأندلس منه بالذات.

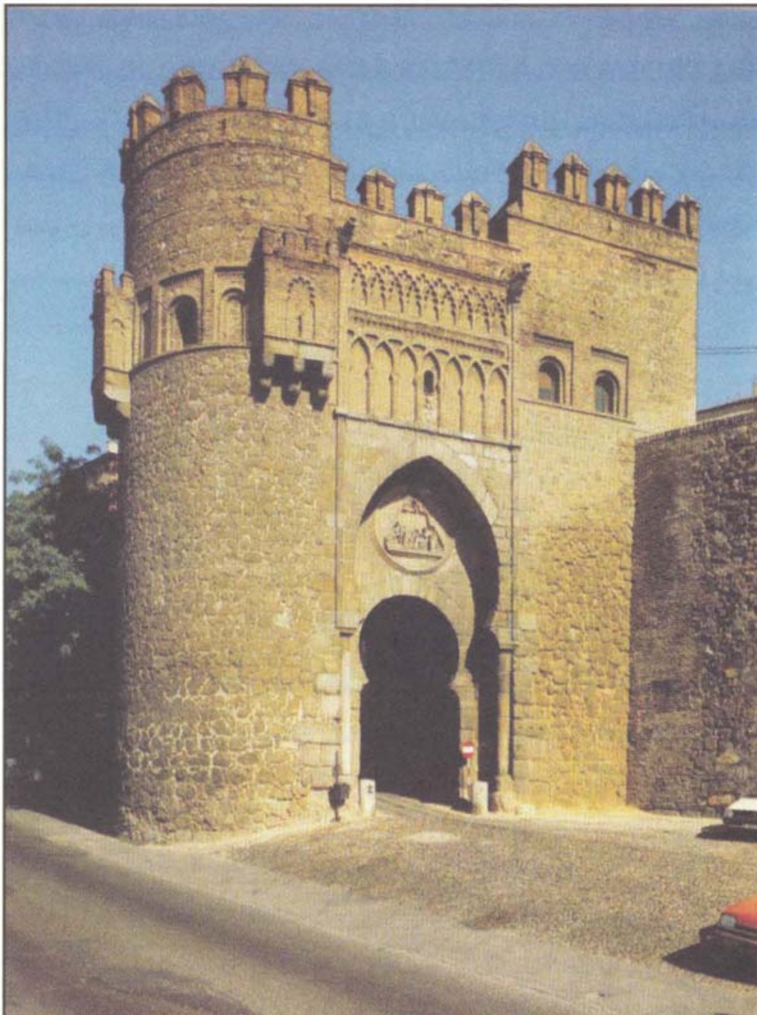


منظر عام لمدينة طليطلة التي تقع جنوب غرب مدريد نحو ٧٠كم

فاسمع واقرأ واستخرج من موقف هذا العالم الأندلسي ما يَسَعُك ووسعَك وتريد. عالم فقيه أندلسي من أهل مدينة طليطلة TOLEDO، كانت عاصمة القُوط قبل الفتح الإسلامي للأندلس، تقع جنوب غرب مدريد (عاصمة إسبانيا اليوم)، نحو سبعين كم (كيلا) على نهر تاجُه TAJO، يصب عند لشبُونة LISHOA،LISBON عاصمة البرتغال الآن)، في المحيط الأطلسي، وطليطلة من أوائل ما فتحه المسلمون من مدن الأندلس في الربع الأخير (ذو القعدة) ٩٢هـ سبتمبر (أيلول) ٧١١م، وأوائل ما سقط منه. أواسط المحرم أو مستهل صفر ٤٧٨هـ مايو (مايس) ١٠٨٥م، وكم حاول المسلمون هناك استعادتها فلم تسعفهم الأحوال.

وكان من عادة النصارى عند سقوط مدينة أندلسية أن يحولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة المدينة الكبرى CATEDRAL، CATHEDRAL، رغم الوعود الأكيدة بعدم القيام بمثل ذلك، وهكذا فعلوا مع طليطلة، إذ بعد سقوطها ربما بأشهر أو أسابيع حوّلوا مسجدها الجامع إلى كنيسة ومنعوا المسلمين من الصلاة فيه والدخول إليه، لكن أحد الفقهاء الأفاضل الذي لا نعرف غير لقبه: المُغامي (نسبة إلى قرية مُغام القريبة من طليطلة) أصر على دخوله ليصلي فيه ويقرأ القرآن الكريم يطيل صلاته وقراءته، بينما الجند من حوله مدججون بالسلاح يستحثونه على الانتهاء والخروج منه، وكأنه ما كان يريد تركه ومفارقته، ولو كان بإمكانه لحمله معه أو أقام فيه عمره[٧١].

٧١- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ص ٣٨٤.



باب المردوم وهو أحد مداخل مدينة طليطلة



مسجد (مسجد صغير) باب المردوم الذي حول إلى كنيسة ويحافظ عليه الآن سياحياً بصفة مسجد، ويسمونه كنيسة مسيح النور (THE CHURCH OF CRISTO DE LA LUZ. (ALREADY A MOSQUE

وإنه لمن الغريب ألا تجد معلومات عن هذا الفقيه فلعلها كانت وذهبت، مثل ذهاب هذا المسجد، ضمن ما دمر وأحرق من مئات الآلاف من المخطوطات. والذي بقي بأيدينا - مما وصلنا - مصدر واحد يذكر هذه الحكاية، وهو كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة[٧٢] (جزيرة الأندلس)، لابن بسام الشنتريني (٥٤٢هـ) من مدينة شنترين[٧٣] SANTAREM بالبرتغال اليوم، شمال شرق عاصمته لشبونة LISBON، LISBOA نحو سبعين كيلا. ثم شرع ألفونسو السادس ALFONSO VL بتغيير المسجد الجامع كنيسة بقوة السلاح، في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربع مائة.

٧٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤/١٠٤.

٧٣- عنها انظر كتاب: الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، ٣٤٦-صفة جزيرة الأندلس، ١٦-١٨.



هذه الصورة تمثل الواجهة الرئيسية لمسجد قرطبة الجامع الذي حُول إلى الكنيسة الكبرى، وفيه

جرت قصة الفقيه المغامي المذكور في الحكاية

وحدثني (يقول ابن بسام): من شَهِدَ طواغيته تَبْتَدِرُه في يوم أعمى البصائر والأبصار منظره وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخرَ من صَدَرَ عنه واعتمده في ذلك اليوم ليتزود منه، وقد أحاط بالمسجد وبالشيخ مَردة عفاريته وأوائل طواغيته، وتكاثر عليه جند الفرنج لتغيير القبلة.

وكان مع الفقيه أحد تلاميذه يقرأ فكلما قالوا له عجّل أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل. ثم قام وما ارتعب ولا تهيب، فسجد به واقترب وبكى عليه مَليّاً وانتحب، فما جَسَرَ أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه الله تعالى منهم، والنصارى يعظمون شأنه ويهابون مكانه، لم تمتد إليه يد ولا عرض له بمكروه أحد.

وهكذا عصمه الله تعالى منهم حتى أكمل قراءة ما يريد، وسجد سجدة ورفع رأسه وبكى على الجامع بكاءً شديداً حتى خرج لم يعرض له أحد بمكروه، وكأنه يحمل حزن القرون السابقة والحاضرة واللاحقة.

فذهبت طليطلة واسطة العقد في الأندلس العتيدة المريدة الفريدة..

20

مغرورون أم مُكْتَشفون؟

كم من صفحات ناصعة زاهرة باهرة، تحتويها الحضارة الإسلامية في رحمها الودود الولود وأكنافها، بعضها تناثر أو اندثر أو انغمر، هي جديرة بالتنقيب والتنقير، لكن المتابعة والتحري المكيث يأتي بالغرائب، وكل ذلك في فضائل هذه الحضارة الإنسانية، التي أقامها منهجُ الله تعالى، كلما أخذ به المسلمون.

والموضوعُ بحاجة إلى همة عالية ورغبة بانية ومنهجية رشيدة، تنضج فهم الأحداث، ولا تقف عند ظواهرها، بل تنظر في بواطنها متعمقة في أغوارها، لتأتي بالجيد الجديد، إخباراً واعتباراً وأنهاراً. وذلك شامل في الجوانب المادية والعلمية والقيمية الروحية والاجتماعية والإنسانية.

وإذا كان ذلك عاماً في هذه الحضارة الإسلامية، فإن لها في الأندلس سهماً كبيراً ومثيراً وجديراً، ومنها أفاد الغرب وارتوى نهلاً وعلا دون تحفظ أو تريث أو حدود، في بناء حضارته وتقديم الكثير من منجزاته وما حققه من مبتكراته، في الجوانب التي أرادها، والتي يظن البعضُ خطأً أنه انفرد بها وكان لها رائداً ومالئاً ساحتها ابتداءً.

من ذلك الكشوف الجغرافية وارتياد المجاهيل، براً وبحراً وجواً. والمسلمون هم الذين بدؤوها ووضعوا أسسها ومهدوا لها قبله بقرون.

يذكر الشريف الإدريسي – الجغرافي المسلم العالمي – (٤٨٧ – ٥٦٨هـ/ ١١٠٠- ١١٦٥م) ابتداء في القسم الأندلسي من كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قصة لاكتشاف المحيط الأطلسي المسمى بحر الظلمات جرت أواخر القرن الثالث/ أوائل الربع الهجري = القرن التاسع/ العاشر الميلادي، وإن كان قد سبقتها ارتيادات أخرى للمحيط نفسه.

وملخص القصة – موضوع الحُكاية- أنه اجتمع من أهل مدينة لشبونه (عاصمة البرتغال اليوم) ثمانية رجال أبناءُ عمومة من درب واحد، سُمّي

باسمهم (درب المغرورين)[٧٤] ولابد أنهم كانوا بحارة لهم خبرة بركوبه، اتفقوا على خوض بحر الظلمات الأطلسي ليعرفوا ما فيه، فأعدوا مركباً ملؤوه بالزاد والماء يكفيهم لأشهر، وساروا لأول الريح الشرقية ولمدة أحد عشر يوماً فواجهوا موجاً وقلة ضوء أيقنوا بالتلف. فأداروا أشرعتهم نحو الجنوب لإثنى عشر يوماً، وصلوا جزيرة الغنم، لكثرتها، فنزلوها وشربوا من عين جارية وأكلوا من فواكه التين.

ولما ذبحوا من أغنامها وجدوها مرة، فأبحروا نحو الجنوب إثنى عشر يوماً حتى وصلوا جزيرة عامرة، فأحاط بهم أهلها وأخذوهم، فرأوا رجالها طوالاً شقراً شعورهم سبطةً ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا أياماً رحلوهم وأوصلوهم إلى بر بعد نحو ثلاثة أيام عند مرسى في أقصى المغرب.

هذه خلاصة القصة التي تناولتها التفسيرات والتحليلات للأماكن التي وصلوها، والظن أن الجزيرة الأخيرة التي وصلوها هي إحدى جزر الكناري (CANARY، CANARIAS = الخالدات). أو ليس أولى إذن تسمية هؤلاء الفتية «المكتشفين» لا المغرورين أو المُغَرَرين؟

وهكذا فإن في فصول المدونات الإسلامية نماذج لهذه القصة سَبَقَت أو لَحِقت في الأندلس بالذات، منها رحلة الشيخ القادسي من مدينة قادس (CADIZ) الأندلسية وقصة خشخاش، فتى من أهل قرطبة في جامعة من أحداثها أعدوا مراكب ارتادوا بها المحيط الأطلسي وعادوا بعد مدة.

٧٤- راجع: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، القسم الأندلسي، ص ١٨٤ وما بعدها. الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، ٦١. كذلك: ٥٢، ٥٠٩. أندلسيات×، ١٤٧/١ وبعدها. عن الإدريسي انظر: الأعلام، الزركلي ٢٤/٧. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسن مؤنس، ١٦٥ وما بعدها. تراجم إسلامية (شرقية وأندلسية) محمد عبد الله عنان٣٠٥-٣١٤.

ألا ترى أن ما قدمته الحضارة الإسلامية ابتداءً وابتداعاً وإيداعاً في الحضارة الإنسانية كانت رائدة فيها، وهي كثيرة متنوعة متدافعة بحاجة إلى اكتشاف؟

ألا يصح إذن أن نقول: (إنه اكتشاف بحاجة إلى اكتشاف).

21

فروسية المرأة الأندلسية

جعل الإسلام المرأة المسلمة في أحسن موضع، لم تعرفه ولن تعرفه إلا بالإسلام وحدَهُ، وتكريمه لها – كشقّها وشقيقها الرجل – طبيعي، حيث إن الله تعالى كرم الإنسان، كل إنسان ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء ٧٠). وذلك بديهي لمن فهم الحياة بعيون كريمة. وهو واضح لأهل الإسلام ومعروف موصوف للمنصفين من غير أهله، فقد خلق الله تعالى المرأة والرجل من نفس واحدة وقد أشير إلى طرف من ذلك الحكايتين الأندلسيتين الثالثة والرابعة سابقاً.

شاركت المرأة في بناء الحياة الإسلامية وترسيخ قواعدها، ودورها لا يقوم به غيرُها، وأولُها تربيةُ النشء وإعدادُه وتقويمه، تمد به الحياة الفاضلة. ومع كل ذلك فقد قامت بكل دور آخر يتناسب ووظيفتها التي أعدها الله سبحانه وتعالى لها، مما يتماشى وفطرتها وتكوينها وخلقتها. وهذا واضح منذ الحياة الإسلامية الأولى أيام الرسول الكريم عليه السلام ومنذ العهد المكي وهو ما سارت عليه الأجيال في القرون التالية.

أليس أول مؤمن امرأة وأول شهيد امرأة، وأول مهاجر إلى الحبشة امرأة، وأول مهاجر إلى المدينة المنورة امرأة، وأول من روى نزول سورة الأنعام جملة واحدة في مكة امرأة، وأول من هاجر الهجرتين وصلى القبلتين امرأة. وأول من نصح الخليفة عمر بن الخطاب وصوبه امرأة، وأول من بنى جامعة في الإسلام – أول جامعة في العالم (٢٤٥هـ) – امرأة، وغيرها ذلك كثير، وهذه هي المفاخر والأمجاد التي تبقى على مدى القرون شاهدة ناطقة.

ضربت المرأة المسلمة بسهم كبير في كافة الميادين في العالم الإسلامي وفي الأندلس، وبكمٍّ وفير، فكانت أديبة ومربية ومعلمة وموجهة وعالمة وفقيهة وطبيبة بل وحتى فارسة.

ولدينا في هذا مثال رائق، تلك هي جميلة العذراء بنت عبدالجبار بن راحلة، التي اشتهرت في الأندلس بجمالها وربما بشعرها. كما كانت مشتهرة بالشجاعة والنجدة والفروسية ولقاء الفرسان ومبارزتهم حتى في العساكر، كأختها – مثلاً – خولة بنت الأزور، وأُخريات.

وحين ثار أخوها محمود ضد السلطة الأندلسية في قرطبة كانت هي تدعوه إلى الطاعة وهو يدعوها إلى الخِلاف. ثم لجأ مع أخته جميلة وبعض أتباعه إلى مملكة ليون (LEON) عاصمة إسبانيا النصرانية يومذاك مستجيراً بملكها ألفونسو الثاني II ALFONSO المتلقب عندهم بالعفيف (THE CHASTE، EL CASTO)

لكن أخته جميلة كانت تدعوه إلى العودة وطاعة السلطة الأندلسية في قرطبة ونبذ الخلاف، حتى رأى فعلاً أنه لا يصح الاستمرار في هذا الشأن. فندم على ذلك وكاتب الأمير عبد الرحمن الأوسط (الثاني) سنة ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م، لكن ألفونسو أحَسَّ بتلك المكاتبة فخشي أن ينقلب سلاحاً ضده، فواجهه مع جنده وأحاطوا به وبأخته ومن معهما، فحاربوه مستبسلين، وهو وأخته يصولان ويجولان مدافعين ببطولة، لكن أخاها الفارس محمود اصطدم بشجرة قتلته [٧٥]، وربما قتلت أخته معه أو فرت أو أُسِرت.

فانظر كيف كان موقعها وموقفها ووفاؤها. كانت بانية حانية موالية، أبلت أحسن البلاء في فروسيتها وولائها لقومها وبلدها ودينها وفية لواجباتها، تحث على الخير وتصونه وتكف عن الشر وتدينه وتنصح ما وسعها بالعفة والأمومة والصون.

٧٥- أطروحة الدكتوراه: Andalusian Diplomatic Relations With Western Europe during the Umayyad period.pp ١١٢-١١٣
والترجمة العربية لها: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية (المجمع الثقافي، أبو ظبي٢٠٠٤)، ١٥٨-١٥٩. المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي ١/٤٨. أندلسيات٢/١٢٤.

هكذا كانت تربيتها التي تلقتها في ذلك المجتمع الكريم بمبانيها المضيئة وتربيتها البريئة وتكوينها الإسلامي الرصين.

تلكم هي المرأة المسلمة في الأندلس وغيره، من عالم الإسلام الواسع خلال القرون. حازت مكانتها الراقية، وأدت دورها البناء وحققت إنسانيتها، في حضارة فاضلة مثلها، ومنارة رفيعة وحياة وارفة، حققه لها ولأخيها الرجل هذا المنهج الإسلامي الرباني الكريم، لا يحققه أبداً غيره بأي حال.

22

قراصنة

أم مجاهدون؟

احتوت الحياةُ الإسلاميةُ ومجتمعها وتاريخها امتلاءً بالقوة والعفة والهمة، نوادر فريدة مدهشة، بما ابتنت عليه نفوسُ أهله من معان كريمة صلحت لبناته فطاب بناؤه وهواؤه وتفتحت مُناه وطال مداه، تعددت الميادين، قائمة ومبتكرة تدفع بأهله إلى تيار الحياة يرتادها ويقودها، تتبارى في مضامير الخير ومضامين الفضل والإنجاز. فحيثما تضعه يأتي الخير، معبراً مزدهراً مثمراً، وكأنه مؤهل له معد لمهماته خبير بمدركاته يأتيها سبقاً يدعو للنظر ويثير الفكر ممثلاً ومتمثلاً بالعبر.

كل هذا يدعو مُسلمة اليوم للتريث والتوقف والتعرف، بحثاً عن ذلك البناء الأنيق الرشيق الرشيد. وهكذا كانت تتفتق المعاني أمامهم يَلِجُون بها مواقع الحياة إبداعاً واقتراعاً في كل ما يُفيد ويأتي بالخير الأكيد والإنجاز الجديد، ربما على غير مثال أو خيال. وأينما تَلَفَّتَّ تجد ذلك، يُعجبك ويجذبك، مراكب ومناكب ومواكب، من النساء والرجال والأطفال، اختص العالمُ الإسلامي بأمثالها وأندلسها الموعود رافع الأعلام والبنود، وكثيرا منها لا نكاد نعرف تفاصيلها بل نجهل وجودها أحيانا، حين الموعد المورود.

فماذا نقول في عشرين بحاراً أندلسياً، لا نعرف اسم واحد منهم، يبحرون من سواحل الأندلس الشرقية على البحر المتوسط، باتجاه شماله إلى شواطئ فرنسا. فماذا تراهم يريدون، وما هو سر قوتهم وحقيقة دوافعهم، لِتَحَمُّل ذلك وخوض غمار المجهول وامتطاء غمرات المخاطر، وماذا أعدوا من مؤهلات هذه الرحلة ومتطلبات المهمة وبمَ استعدوا لها؟

وما أن وصلوا سواحل فرنسا شمال مرسيليا MARSEILLE، بينها وبين NICE (نيقة)، عند خليج سان تروبيس SAINT-TROPES شمال طولون TOULON في منطقة البروفانس PROVANSE جنوب فرنسا عند سفوح جبال الألب (ALPS: MTS.)، حيث الآن جبال المور MASSIF DES MAURES = الأندلسيون، وتقع عليها قرية غارد فرينيه GARDE – FREINET، حتى نزلوا فيه باحثين عن مكان آمن، يتخذونه قاعدة لهم،

ليبدؤوا القيام بمهمتهم.

فكان ذلك الموقع البارز البارع الذي يدل اختياره على حكمة وخبرة. فأقاموا عدة معاقل وحصون كان أمنعها المكان الذي يقوم على جبل مرتفع داخل غابات كثيفة، تحيط به واسمه باللاتينية FRAXINETUM مشتق من اسم شجرة الدردار [٧٦] الكثير هناك، ومنه أخذت التسميات الأوروبية الأخرى.



هذه شجرة الدفلى

٧٦- شجرة الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وثمر كقرون الدفلة، يُغرس على حافة الطريق للزينة والظل والخضرة.

لكن اسمه في مصادرنا الإسلامية (جبل القلال) جبل القمم ٢. كان ذلك حوالي سنة ٢٧٧هـ = ٨٩٠م أيام الأمير الأندلسي عبدالله حفيد الأمير عبدالرحمن الأوسط وجد الخليفة عبدالرحمن الناصر. وتقاطر عليهم الأتباع من الأندلس والمغرب، فأقاموا دولة استمرت قرابة مئة عام.

والمتوفر من مصادرنا تسميهم (المجاهدون) لكن المصادر الأوروبية المتوفرة – ومنها أكثر المعلومات- تسميهم القراصنة PIRATES، PIRATAS... والقرصنة PIRATERIA PIRACY .

لكن استقراء الأحداث واستكناه ما تدخره مضامينُها واعتبار أبعاد أمثالها تدل على أنهم فعلاً ذهبوا مجاهدين، لا هاربين ولا ناهبين ولا معتدين.

فانظر أية همة عالية كانت تملأ نفوسهم، وقوة متوقدة أخذتهم إلى هناك، وهدف سام جعلهم يتحملون كل ذلك؟ لا شك أنه الجهاد في سبيل الله فهم لم يذهبوا هذه الوجهة والمذهب ويسعون لهذا المطلب واحتمال السير إلا لذلك ولابد أنهم عرفوا من الأخبار هناك ووصلت أنباء أحوالها وأسبقوا سفرهم بطلائع أتتهم بالأخبار، بجانب المعلومات السابقة كما هي العادة في مثل هذه الآثار ولا يبعد أبداً أن يكونوا قد علموا بوجود مسلمين هناك بقايا الفتوحات الإسلامية السابقة لتلك المناطق [٧٧] أو جاء وفد يحمل إليهم هذه الأنباء، فلبُّوا النداء واستجاشوا للفداء، فانطلقوا بالولاء للبناء.

٧٧- التاريخ الأندلسي حتى سقوط غرناطة :ص ٥٨ وما بعدها.

23

قرطبة
تستقبل سفيراً !

حازت الأندلس خلال قرونها الأولى، لاسيما الرابع الهجري = العاشر الميلادي، أعلى وأرقى وأسمى الأضواء في العالم الإسلامي أحياناً، بما كان لها من بنائها الحضاري الرفيع وفي كافة جوانب الحياة وميادينها. حيث أقامت – بدين الله تعالى – مجتمعاً رفيعاً منارُه وسيعاً، وإطاره سامياً مضماره في إهابٍ فسيح ضَرَبت خِيَمُهُ أطناباً راسخة ثابتة الأوتاد ظليلة الأفياء.

اتضح ذلك كلما اقتربت من منهج الله المبارك لكل من يأخذ به من الأعصار والأمصار، سُنة ماضية إلى يوم الدين، وكل خير فيها كان من بركاته ومنه عرف العالم أفانين الحياة الكريمة، أخذ منها علمه وأقام عليه تقدمه الحاضر وآلة مبتدعاته وأركان مدنيته، وكان قبلها غفلاً وجهلاً وعطلاً.

والميادين الإنسانية المركنة عرفها عالم الإسلام، ابتداءً، بأعراف ثابتة كريمة وفنون سامية أنيقة وآداب عالية رقيقة طبعت حياته، في وقت كان كل ما حوله محلا غريباً وقاحلاً سليباً وجدباً رعيباً حتى ما يدركه أو يفهمه فضلاً عن أن يعلمه.

من ذلك فن الدبلوماسية، بل فضائله وخلقياته وأعرافه البرة، التي لا تلحق غباره دبلوماسية اليوم وقد سبق أن مر طرف منها في الحكاية الأندلسية الأولى (سفارة أندلسية إلى الدانمارك). تلك كانت من الأندلس ذاهبة جواباً، أما سفارة اليوم فهي قادمة إليه ركاباً، وإن اختلف الاتجاه.

وموضوع الدبلوماسية والعلاقات الدولية الإسلامية في حضارتنا أمر شبه مجهول أو مغيب في دراساتنا الأكاديمية والدراسات العلمية والمواد الجامعية.

وحكاية اليوم تقدم خبر سفارة ألمانية [٧٨] يرسلها الإمبراطور الألماني (إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة): أوتو الأول الكبير (OTTO I THE GREAT) إلى حاكم العصر الخليفة الأندلسي عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله الذي كانت مدة حكمه فوق خمسين عاماً، كل النصف الأول من القرن الرابع الهجري وجدت في مذكراته أنه استراح خلاله ١٤ يوماً لا غير [٧٩]!!!

ازدهرت في الأندلس كافة جوانب الحياة وبلغت حضارته مبلغاً عظيماً، لاسيما القرن الرابع الهجري، فماجت الدروب إلى قرطبة بالبعثات الدبلوماسية والسفراء والوفود الرائدة الراغبة الراجية (منهن أميرات) من البلدان، خاصة الأوروبية، كل يطلب ودها ويروم صداقتها، وهكذا توالت السفارات إليها برئاسة سفراء أو أمراء رؤساء.

وخير من وصف ذلك ابن حيان القرطبي (٤٦٩هـ = ١٠٧٦م)، ونقله عنه آخرون، مثل ابن خلدون (أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، ٨٠٨هـ = ١٤٠٦م)، «ومدت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن في مرضاته، ووصل إلى سدته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه [٨٠].

٧٨- راجع كل تفصيلاتها هذه في أطروحة الدكتوراه: Andalusian Diplomaric Relations With Western Europe during the Umayyad period.pp.

والترجمة العربية لها: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية (المجمع الثقافي، أبو ظبي ٢٠٠٤)، ٢٧٣-٢٩٧. كذلك: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة× ٣١٨ وما بعدها.

٧٩ - المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ١٨٢/١، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقري ٩٧٣/١

٨٠- نفح الطيب ٤٥٣/١، أزهار الرياض، ٨٥٢/٢ - ١٦٢،٢٧٢-٣٧٢، ٨٨٢-٣٩٢، العبر، ابن خلدون، ٩٩٢/٤، ٩٠٣-١١٣.

و«هادته الروم وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية»[٨١].

وكان من بين هذه السفارات تلك التي أرسلها أوتو الأول إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، الذي أرسل سفارة برئاسة سفيره، الراهب: يوحنا الغرزيني (JOHN OF GORZE)، حاملاً معه رسالة الإمبراطور، راجيا فيها الخليفة الناصر أن يتدخل في موضوع دولة المجاهدين في جبل القلال (الحكاية الأندلسية السابقة) ووصلت هذه السفارة قرطبة العلم والمجد والحضارة بعد سنة (٣٤٠هـ /٩٥١م). لكن هذه السفارة بقيت في قرطبة نحو ثلاث سنوات، يقال: إن السفير الراهب تعلم العربية وحمل معه في عودته منها بعض المخطوطات.

وخلال ذلك أرسل الناصر سفارة إلى ألمانيا للقاء الإمبراطور، وعند عودتها إلى قرطبة بدأت ترتيبات لقاء السفير الراهب يوحنا لمقابلة الخليفة في ربيع الأول النبوي ٣٤٥هـ = صيف ٩٥٦م، في مدينة الزهراء الخليفية الواقعة خارج قرطبة غرباً على بعد نحو ثمانية كيل، والمستلقية عند أقدام جبل العروس. وفي القصر الخليفي في قاعة مجلس السفراء المسمى: المجلس المؤنس، أقيمت الاحتفالات بحضور رجال الدولة والجند والمستقبلين من الناس في حفل بالغ الحفاوة والاحتفاء. ودخل السفير الراهب المجلس. وكان الخليفة جالساً متربعاً على سريره، وقبّل السفير يد الخليفة، لكن السفير كان متوتراً، إلا أنه تعجب من سماحة الخليفة وحديثه عن الإمبراطور، وكان استقبالاً رائعاً حافلاً، جعل السفير يذهب توتره، وتحادثا فى الأمور اللازمة وانتهت المقابلة على أن تتكرر.

٨١- نفح الطيب، ١/٣٦٦.



J. G. Mensia, pint.

'Abdu'r-Rahmân III receives the monk, John of Gorze, 350/961 [345/956].
(From PHE., I, 139)

الخليفة الاندلسي عبد الرحمن (الناصر لدين الله، ٣٥٠هـ / ٩٦٢م)، يستقبل الراهب (السفير الألماني) يوحنى الغرزيني في قصر الزهراء، سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م.



Madinat az-Zahrâ': the rooms of the Palace (*Dâr al-Malk* دار الملك), where ambassadors and official visitors stayed before their audiences with the Caliph (*al-Khalifah*).

بعض غرف قصر مدينة الزهراء (دار الملك) حيث يستقبل السفراء والزوار استعدادا للقائهم بالخليفة.

وإلى هنا تقف مذكرات السفير، حيث جُلُّ هذه المعلومات منها مكتوبة باللاتينية مترجمة إلى الإسبانية [٨٢] ولدى رحيل السفير الألماني وسفارته ودعها الخليفة الناصر بنفسه في احتفال رسمي، وكان ذلك في نفس الشهر من العام.

هذه مشاهد من الحياة الدبلوماسية الأندلسية غنية بالتفاصيل، وقد أوعبتُها بحثاً في أكثر من دراسة، لاسيما أطروحة الدكتوراه عن: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية خلال المدة الأموية، المطبوع بالإنجليزية، وترجمتها العربية ظهرت بفضل الله تعالى في المجمع الثقافي، أبوظبي، ٢٠٠٤.

ولقد تبين خلال ذلك كله مما عثرت عليه واكتشفت وكشفت اعتماداً على مصادر منها مخطوطة أن الأندلس، بجانب كل ذلك، وضعت بذور التمثيل الدبلوماسي الدائم الذي أنشأته [٨٣] ربما في أكثر من مناسبة ومكان.

هكذا كان حال الأندلس سموا وتعلما وتقدما بمقدار أخذه بالمعاني الفاضلة كانت المصدر الوحيد لكثير من العلوم والمبتدعات والتقدم، هديتها لعالم اليوم. مثلما أن التردي دون تلك المعاني يأتي بمباعدتها، لكن العودة – والعود أحمد – يوم تعود الأمة إلى الخير والقوة والنصر كلما عادت إليه وأخذت به واحتضنته.

٨٢- المُغْرب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي، ١/١٨٢. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ١/٣٧٩.

٨٣- نفح الطيب، ١/٣٥٤. أزهار الرياض، ٢/٢٥٨-٢٦١، ٢٧٢-٢٧٣، ٢٨٨-٢٩٣. العِبَر، ابن خلدن، ٤/٢٩٩، ٣٠٩-٣١١.

٧

24

مدينة هزمت امبراطوراً !!!

كان الفتح الإسلامي للأندلس هدية التاريخ والحياة والحضارة، لتلك الأرض ولما بعدها التي عرفت بالبُرت PIRINEOS PYRENEES بين إسبانيا وفرنسا، ابتداء مما يسمى بالأرض الكبيرة (فرنسا وما يليها) وكثير من بقية أوروبا الغربية، هدية حملت كل أفانين البر والخير والسعادة (للدارين).

هؤلاء الذين حملوا منهج الله تعالى وبه انطلقوا ينيرون الأرض حيثما أقاموا. وإذا كان المد الإسلامي قد توقف تدفقه سنة ١١٤هـ = ٧٣٢م بقيادة والي الأندلس المقدام الهمام المجاهد عبدالرحمن الغافقي واستشهد هوفيه عند تور بواتييه TOURS- POITIRES بلاط الشهداء، جنوب باريس نحو ٢٠٠ كيل، فإنَّ الخسارة عظمت به، وإن حاول المد التدافع والترافع والانبثاق هنا وهناك، لوقته وفيما بعده. لكن توقف نهر الخير من الانسياح في تلك الأرض ليسقيها غرساً تكون بساتين خضراء مثمرة، بعد أن كانت صحراء مقفرة، صحراء النفس والحياة والحضارة، ويبسها من الخير والنعم والإنسانية، اعترف بخيره الذاهب عنهم، حتى بعض الأوروبيين المنصفين.

دارت بالأندلس لفترة رحى فتن ومحن اقتحمت ساحتها عنوة، ليوضع لها حد بمجيء الداخل للأندلس وهو عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك، صقر قريش، بوصوله إليها سنة ١٣٨هـ = ٧٥٥م. فاجتمع عليه الناس وبويع بالإمارة في قرطبة في السنة نفسها.

بدأ الداخل - من خلال طاقاته ومؤهلاته وحسن سياسته - جمع الإمكانيات والخبرات والتجارب، بإقرار الأوضاع وبناء دولة مركنة موحدة متماسكة.

كانت على الجانب الآخر - خلف الجبل في فرنسا وما بعدها -

الدولة الرومانية المقدسة، إمبراطورية فتية قوية يقودها شارلمان CHARLEMAGNE (شارل الكبير)، أقوى ملوك الأسرة الكارولنجية (CAROLINGIAN DYNASTY)، لم يرقه أن تقوم دولة مسلمة في أوروبا تجاوره، فزينت له سلطته إسقاطها وإلحاقها امبراطوريته، في وقت تبع انتصاره على قبائل السكسون، قوية الشكيمة الثائرة عليه واتفق أن بعض ولاة المقاطعات الأندلسية الشمالية، لاسيما برشلونة (BARCELONA) وسرقسطة (ZARAGOZA) شقوا عصا الطاعة على قرطبة (CORDOBA)، وأرسلوا وفداً إلى شارلمان يستدعونه لمهاجمة الأندلس وأخذها فجهز شارلمان جيشاً ضخماً من جميع مناطق الامبراطورية، قاده بنفسه.

وعند وصوله الجبال (ألبرت، وليس البرانس[٨٤])، قسم جيشه قسمين: قسم يقوده بعض قادته، يعبر إلى الأندلس شرقاً على البحر المتوسط (ممر باربنيان (PERPIGNAN)، وقسم يتولاه هو يجتاز ممر رنشفاله (RONCESVALLES) (باب الشيزرا) في الغرب، ليلتقيا عند مدينة سرقسطة (شمال شرق مدريد ٣٢٥كيل) التي كان واليها مشاركاً في دعوته، لكن ضميره صحا لهول هذه الخيانة، فغير موقفه وحصن المدينة ضد حملة شارلمان، مستعداً ومرتباً ومصمماً للدفاع عنها.

ولمدة شهر من الحصار، باءت محاولات شارلمان بالفشل، فلم يفلح في دخول المدينة. وتجمعت عليه هموم الفشل وغيرها، فعاد بكل جيشه من المعبر الغربي. وبينما هو في وسطه وقعت له الكارثة الكبرى، هاجم الجيش الأندلسي – ربما بالتعاون مع سكان الشمال – مؤخرته وفيها خيرة قادته فأفنوها، واستنقذوا من فيها من الأسرى والغنائم ولم يستطع عمل شيء

٨٤- انظر: الروض المعطار، ابن عبد المنعم الحِمْيَري ٤٣٥. الحلة السيراء، ابن الأبّار، ٢/١٧٩. تاريخ الجغرافيا و الجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، ص ٤٨١.

وهو يشهده بعينه محسوراً لضيق الممر وصعوبة الحركة فيه حيث لا يسمح بالمرور إلا الفارس بعد الفارس. وكان بينهم أشهر قادته، منهم رولان (ROLAND) الذي نظمت حوله الكثير من الأغاني الشعبية في العصور الوسطى الأوروبية، معتبرة إياه بطلاً قومياً، منها أنشودة رولان الشهيرة (LA CHANSON DE ROLAND) ولا يزال قبره هناك مكتوباً عليه تاريخها عام ١٦١هـ = ٧٧٨م.

وهكذا عاد شارلمان خائباً، نتيجة الوقفة الكريمة التي ظهرت وهزمت الفرقة والخيانة، التي ردت في نحورهم وظهورهم ودبورهم. فأدرك شارلمان بعدها استحالة هذا الأمر الوهم، فمال إلى طلب السلم مع الأندلس، وأرسل سفارة لذلك، بل وعرض على عبدالرحمن الداخل المصاهرة الذي اعتذر عنها وقبل السلم بمعاهدة وقعت بينهما [٨٥].

وهكذا ترى كيف أن الخيانة والعمالة تجلب أكبر الأذى، لكن بالالتزام والفهم يتم الالتئام، فلا يستطيع أحد الاقتحام ولا يتم الإتيان من الداخل.

والأمل كل الأمل – إن شاء الله – أن يتم تفهم ذلك والتعلم منه والاعتبار له، وهو بعض المطلوب من وراء كل هذه الحكايات، وهو من الأهداف المهمة لدراسة التاريخ عموماً.

٨٥- الحلة السيراء،١/٢٦٩. التاريخ الأندلسي *، ٢١٨-٢٢٦، العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوروبا الغربية، ١٧٣-١٧٧، دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبدالله عنان. نفح الطيب، ١/٣٣٠-٣٣١.

25

مدينةٌ ..
أنقذها الجهاد

بنى الإسلام – بمنهجه الرباني – مجتمعاً كريماً قوياً أميناً في كل شيء، من النفس الإنسانية إلى ميادينه ومبانيه الأخرى، لتصل إلى مجتمع يمتلك كل تلك المواصفات التي تجعله عزيزاً متحضراً إنسانياً لنفسه ومجتمعه وكل من عايشهم وعاملهم ولغيرهم. ذلك ميزانُ قانونٍ ومعيار، لكن عدم ملازمة هذا المنهج ومفارقته أو مواربة منهجه تقود إلى عكسه وبمقداره.

وعندها تصبح الأمة نهباً لعدوها وأهل الأهواء فيها، ومركباً للنهازين من أعدائها وأبنائها المردة على السواء، داخلاً وخارجاً، لا يرقبون فيها إلا ولا ذمة (لا عهداً ولا أماناً)، يتفننون ويعبثون، يصوبون ويصبون وحشيتهم بكل لون يخطر على بال، وهم يدعون أنهم يحسنون صنعاً. وهذا ما جرى في الأندلس مرة أيام الطوائف. فعلينا أن نستقرئ التاريخ وندرسه بعمق نظر وسبر غور.

وحين تعود الأمة (أمتنا المجيدة العتيدة) إلى منهجها، يعود إليها كل ما فقدته يوم ضيعت منه. والحياة الإسلامية – وبكل حركة مجتمعها ماضياً وحاضراً – لا يريم عن ذلك ولا يهيم. وهذا جزء من تفسير التاريخ الإسلامي ومعرفة حركته وسنن مسيرته.

فبعد تلك الصيغ الفاضلة فيه المتمتعة بالعافية، تلاها – لأسباب – النزولُ إلى التخفف منها والتخلف عنها والتقليل أو البطء فيها، فانزلقت إلى هاوية عاشت بالفرقة والتشتت، بسبب ضعف الالتزام، فذاقوا وباله، وما أنقذهم إلا العودة إلى الخط الكريم ومنهجه القوي القويم.

وحكاية اليوم عن عصر الطوائف في الأندلس، القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وما حمله من كوارث كان منها: مدينة بربشتر[٨٦]

٨٦- راجع التاريخ الأندلسي ، ٣٥٩ وما بعدها. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، ١٣٧/٣-١٤٥. جغرافية الأندلس وأوروبا، أبو عبيد البكري، ٩٣. البيان المغرب، ابن عذاري، ٢٢٥/٣ وما بعدها. المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ٢٣٩/١.أعمال الأعلام، ابن الخطيب الغرناطي، ص١٧١. نفح الطيب المقري، ٤٤٩/٤-٤٥٤. دول الطوائف، محمد عبدالله عنان، ٢٧٤-٢٧٩. تاريخ الأندلس ووصفه، ٦٩-٧١. الروض المعطار، ابن عبدالمنعم الحميري، ٩٠-٩١. الحلة السيراء، ابن الأبّار، ٢٤٧/٢.

(BARBASTRO) التي ضاعت بالتقصير وأنقذت بالجهاد وحسن التدبير. تقع هذه المدينة شمالي الأندلس نحو ٤٠٠ كيل، فوق مدريد وشمال غرب برشلونة (BARCELONA) على أحد فروع نهر إبره (EBRO) الذي يصب (يقع) في البحر المتوسط عند مدينة طرطوشة (TORTOSA).

وعصر الطوائف في الأندلس، هو عصر التمزق والتشتت والتفكك إلى ممالك صغيرة، حيث بلغت أحيانا فوق العشرين [٨٧] غصت به الأندلس وكان سبباً في ذهابها، ولو بعد خمسة قرون، غصة لم يذهبها أو يرفعها غير بناء النفس بالنقاوة للمباني والمعاني الخيرة،التي أقيم عليها ذلك المجتمع ابتداء واعتمد دوماً الخط الخلقي الكريم، يوم التزم بالبيعة والقيم وما انهزم.

كانت كارثة هذه المدينة على يد النورمان، شعب أصلهم من الأراضي المنخفضة في الشمال الأوروبي تقلبت بهم ظروف النهب والسلب والعدوان على كل أحد حيث يمكنهم، وقاست وعانت منهم دول أوربية الويلات، ثم استقر قسم منهم – بعد أن خرج بعضهم من وثنيتهم إلى النصرانية، وأصله دين محبة، وهم على حالهم لم يتبدل فيهم غير المظهر– منطقة احتلوها شمال غربي فرنسا، بداية القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، وحملت اسمهم: نورماندي (NORMANDY). وهبها لهم ملك فرنسا يومها، شارل الثالث البسيط أو الأبله (CHARLES III، THE SIMPLE).

وكان قسم منهم قد وفد إلى روما (رومة)، لخدمة الكرسي البابوي، برئاسة قائدهم جيوم دي مونري (GUILLAUME DE MONTREIUL). ولما سألوا البابا إسكندر الثاني ALEXANDER II: عمَّ يقربهم في النصرانية، أشار عليهم بحرب المسلمين في الأندلس، مخالفاً أصول دينه.

٨٧- التاريخ الأندلسي ص٣٢٣وما بعدها.

فسارت جيوشهم المحتشدة في النورماندي نحو الأندلس، مع جيوش من الفرنسيين والإيطاليين، ذكر أن عددهم بلغ الأربعين ألفاً، أغلبهم خيالة. فكانت حملة صليبية بأوسع معانيها، تكويناً وهدفاً وفعالاً، لا يملكون من النصرانية الحقة غير اسمها حتى وصلوا مدينة وشقه (HUESCA) الأندلسية. فلما أعجزتهم اتجهوا جنوبها الشرقي حيث مدينة بربشتر رمضان ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م. فحاصروها أربعين يوماً، جرت خلالها مناوشات شديدة بين كرٍ وفر، لكن المدينة أنهكت واحتل النورمان مواقع خارجها. وقتل المسلمون منهم عدداً كبيراً.

وحدث أن النهر الذي يمد المدينة أغلق، ثم المجرى الداخلي السري، حين دل النورمان عليه أحدُ الخونة، فمنعوا الماء بتخريبه وإلقاء صخرة فيه، فانقطع الماء عن المدينة كلياً وقلت الأقوات وبات الوضع مُهدّداً بالموت والفناء، مما اضطرهم أن يَعرضوا على النورمان الاستسلام والتسليم، مقابل التأمين على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ويخرج المقاتلون وغيرهم كثير من المدينة. وذلك مثلما حدث في بلنسية (كما سيأتي في الحكاية الأندلسية السابعة والعشرين)، فوافق سريعاً النورمانُ، الذين دخلوا المدينة دخول الوحوش الهائجة، قتلاً وهتكاً وفتكاً، خلواً من كل معنى متجردين من أي مضامين، حتى بلغت ضحايا القتل بالآلاف أو عشراتها، بشائع وشنائع يبدو معها الموت مصيراً مفضلاً مغبوطاً، غير ما عبث بالناس دوساً ورفساً بالرجل والحافر وأسراً، نساءً ورجالاً وأطفالاً.

تم ذلك بشكل عبثي مجرد من أي معنى وقيمة، لعرض أو حياةٍ أو دم. فهذا هو انتصارهم وفعالهم، وهم يتفننون فيه ويتقنونه وبه يتفوقون ممّا جعل مؤرخونا يعتبرونها نازلة أعظم من أن توصف.

وتفيض الرواية الإسلامية في ذلك كله، ومنهم معاصرون وشهود عيان،

لاسيما ما سجله المؤرخ الأندلسي المعاصر ابن حيان القرطبي[88] (٤٦٩هـ/ ١٠٧م). والذي يخجل الإنسان من روايته، وهو ما كانوا يستمتعون به بولع غامر ثم إنهم اختاروا الآلاف من أبكار الفتيات المسلمات ووزعوهن على أمرائهم في أكثر من بلد من بلدانهم.

ضرب هذا الحدث الأندلس كله بزلزاله، فتجاوزت حالة الطوائف وتنادت للجهاد، قاده أبو جعفر أحمد بن سليمان بن هُود، الذي لُقّب بـ«المقتدر بالله» لقيادته حركة الجهاد هذه، فسار موكبه المبارك بالآلاف الستة أو تزيد نحو بربشتر نهاية جمادى الأولى من عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م وتم تحريرها من الوحوش الكاسرة بعد تسعة شهور من بداية المحنة المهلكة المبيدة المبيرة.

وهكذا أذهب العجز والفرقة والفشل المدينة وأعادها الجهاد واللحمة والإقدام رغم الهول الغامر، حيث لم يجد الكلام والبكاء والدموع أمام هذا المشهد المريع وأمثاله، حتى لو كان بعضها دموعَ التماسيح، تماسيح البشر المتوحشة ومهارة التمثيل.

وهذه قضية مثل كثير غيرها في التاريخ الإسلامي -لاسيما الأندلسي- غائب ومغمور مجهول، ومعرفته لازمة مهمة وضرورة حياتية وعلمية وإسلامية. بجانب أن عرض التاريخ الإسلامي بشكله السليم المُوصل المُدقّق - مع التعرف عليه - يجعل الجيل أكثر حضوراً وفهماً ووعياً، يستوعب أحداث العصور - مع معرفة عصره - بشكل أدق ويرتقي بفهمه للحياة وطبيعة الإنسان وطريق الارتقاء المقبل عليه.

٨٨- التاريخ الأندلسي، ٣٦٢ وبعدها.

26

ضيعت ..
فوجدها العلماء

الأصالة واضحة في بناء الإسلام لمجتمعه، وقد تزل قدم، أو أقدام، فانتظر الكوارث، بعضها جسام، لكن ما دام أهله مرتبطين به، يحومون حوله، يفتح ذلك طريق العودة إلى رحابه بفعل الحماة والرعاة والدعاة يبعثهم الله تعالى لاستعادة حيوية الأمة وخيريتها، بتجديد المعاني وإقامة المباني، رغم الرياح العاتية المضيعة. يوفرون جهدهم لهذا بإخلاصهم وتفانيهم واحتسابهم، فتهب روح الإيمان ورياحه، طرية ندية سخية.

ودوماً عند التياث الأمر، مرة ومرات، يقوم علماء الأمة[٨٩]- حماتها الحقيقيون – يتبعهم الناس، وغير قليل ممن كانوا سبب نكبتها، أوبة وتوبة، ويهدي الله سبحانه وتعالى من يشاء. وقد يأتي النور اللألاء من باطن الظلمة ويشق الطريق من متراكم الصخور وينبثق الماء متدفقاً من صم الجبال وعاتيها، لكن بالجهد والاجتهاد والجهاد، يتداوله أهل الفطرة والخير والإيمان. هذه هي صورة عصر ملوك الطوائف[٩٠] في الأندلس (القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي):

وتفرقوا شيعاً فكلُّ محلة   فيها أميرُ المؤمنين ومنبرُ

يوم ألقوا بأيديهم إلى عدو الأمة، وطلبوا معاونته على أمتهم، وتسابقوا لمرضاته وتحقيق رغباته، وأعطوه أكثر مما يريد، تنازلوا له عن البلد، حصوناً وميادين، لكن بفعل العلماء- توجيهاً وقيادة وزعامة – تابعهم عموم الناس، لإخلاصهم، فآبوا إلى الطريق.

أدرك العلماء – أول من أدرك – فهبوا داعين إلى تجديد المعاني الإسلامية، واقتضاهم ذلك سنوات كثيرة.وكان أولهم القاضي الفقيه العالم سليمان بن خلف: أبو الوليد الباجي (المَرِيّة ALMERIA ٤٧٤هـ = ١٠٨١م)، نسبةً إلى مدينة باجه الأندلسية BEJA، كان قد ذهب إلى المرية مبعوثاً، سفيراً ووسيطاً للصلح بين بعض الأمراء. والباجي معروف

٨٩- التاريخ الأندلسي ،٣٣٦ وما بعدها.

٩٠- التاريخ الأندلسي ، ٣٢٣ وما بعدها.

بأنه صاحب العلم الواسع والمعرفة والمؤلفات، والرحلة إلى المشرق – كعادة الكثير من أهل الأندلس – فرحل سنة ٤٢٣هـ وعاد منها سنة ٤٤٠ هـ، لمدة ثلاثة عشر عاماً، وأقام ببغداد ثلاث سنوات، درس ودرّس[٩١].

وهناك أجر نفسه لحراسة الدروب، يستعين بذلك على تكاليف معيشته، و«لما قدم من الشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم في الصلح وهم يجلونه في الظاهر ويستثقلونه في الباطن ويستبردون نزعته.. فالله تعالى يجازيه عن نيته»[٩٢] وكانوا يلقونه بالترحيب لهيبته «مقامه مقام مؤمن آل فرعون... كان يرجو حالا تثوب ومذنباً يتوب»[٩٣].

ولما كثر عيث الطاغية ألفرنسو السادس ALFONSO VI ملك قشتاله: (CASTILLA) وتطاوله واستنزاف الأموال منهم انتدب أبا الوليد الباجي عمر المتوكل، أحد ملوك الطوائف في سرقسطه: (ZARAGOZA) «للتطواف على أولئك الرؤساء ... يندبهم إلى لم الشعث ومدافعة العدو ويطوف عليهم واحداً واحداً وكلهم يصغي إلى وعظه»[٩٤].

فكان الباجي يتجول في الأندلس كلها لدعوة الناس والأمراء إلى النهوض والأخذ بالأسباب واحتضان ما في الكتاب، فلم يترك مدينة إلا وزارها، يجدد معاني الإسلام في أهلها، ويرتقي بنفوسهم، عاونه في ذلك آخرون منهم أبو عمر يوسف بن عبدالبر (٤٦٣هـ) عالم المغرب وابنه أبو محمد عبدالله، فأخذت الأمة تستجيب له شيئاً فشيئاً.

٩١- عن أبي الوليد الباجي: الذخيرة، ٧٦/٢-٨٤. المرقبة العليا، أبو الحسن النُباهي، ٩٥. التاريخ الأندلسي، ٣٣٨-٣٤٤. المغرب، ٤٠٤/١. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٨٧/٣. نفح الطيب، ٧٢/٢-٨٥. الروض المعطار. الديباج المذهب، ١٢٠. الحلة السيراء، ٩٨/٢، ١٢٨. سير أعلام النبلاء الذهبي، ٥٣٥/١٨-٥٤٥. الأعلام الزركلي، ١٢٥/٣.

٩٢- التاريخ الأندلسي ٣٣٩ وما بعدها.

٩٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، ٥٦/٢.

٩٤- الحلة السيراء، ابن الأبار، ٩٨/٢.

وهكذا هبت ريح الإيمان نسيماً ندياً حرك النفوس وأعلى الرؤوس وأقام الهمة في الأرجاء. ولقد سمت بالقاضي الفقيه أبو الوليد الباجي تقواه وعلمه وهمته.وهكذا قضى ثلاثة وثلاثين عاماً في الدعوة إلى الخير والتوحد ونبذ الخلاف وجمع الكلمة، بهذه المعاني.

وكان تطوافه في عموم الأندلس بجانب ما كان يدرس من طلبة، يأتي الدرس وأثر المِطْرَقة في يده، يقوم من التدريس للطلب والذي به غرامه، وذلك في أكثر من مدينة، مثل: سرقسطة وبلنسية (VALENCIA)، مضى على ذلك عمره، وقضى في مدينة المرية (ALMERIA) سنة ٤٧٤هـ، حيث جاءها سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام، ويروم جمع كلمتهم مع جنود أمير المرابطين احتساباً لله.

ولعله كان مشاركاً في بث روح الجهاد الذي انتهى بتحرير بربشتر (الحكاية الأندلسية السابقة). وكان بجانب ذلك قد مشى بين ملوك الطوائف بالصلح وترسل لبعضهم، يصلح ذات بينهم، فمنهم من قبله وأقبل عليه ومنهم من استثقله وإن أظهر احترامه، مشبها ذلك بمؤمن آل فرعون.

وكانت دعوة الباجي وإخوانه من علماء الأندلس قد أتت بحياة رشيدة وولادة جديدة للأندلس، فلم تؤد إلى توحيده وإزالة حالة التشتت فقط، بل وردت كيد الأعداء مما قاد إلى استمراره في البناء والتقدم والانتصار –وإن تعثر أحيانا– لكنه عاش بكثير من العافية حتى أتاه اليقين.

فنهضت الأمة، ترفض حالة التمزق، قامت ضد ملوك الطوائف التي جعلت الأندلس مهدداً من الداخل والخارج، فردت – بعد التوحد – أهل تلك العاديات الذين أرهقوها تهديداً واستنزافاً واستنزالاً.

فهب الناس بتلك المغاني حتى نضجت جوانبها التي كان منها الوجهة الشعبية الناضجة، لاستدعاء جيش المرابطين- إخوة العدوة المغربية –

لإنقاذهم بقيادة الأمير يوسف بن تشافين لاسيما بعد سقوط طليطلة (TOLEDO) سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م.

وكان لابد من الإعداد لذلك، الأمر الذي توج بمؤتمر حضره العديد من أمراء الطوائف والعلماء والقضاة ومنهم القاضي الوزير أبو بكر محمد بن أبي الوليد ابن زيدون (وهو ابن الشاعر أحمد بن عبدالله بن زيدون)، وبزعامة المعتمد بن عباد الذي قال كلمته المشهورة حين حذر من المرابطين: «لأن أكون راعي الجمال في صحراء إفريقيا خير من أن أرعى الخنازير في قشتالة»[٩٥]، أي أن يأسره المرابطون فيرعى جمالهم في إفريقيا أفضل من أن يأسره ألفونسو ليرعى له الخنازير في قشتالة. تلك كلمة أنطقه بها روح الجهاد والتضحية والاحتساب.

فكانت معركة الزلاقة (SAGRAJAS)[٩٦] التي توجت ذلك كله بالانتصار في ١٢ رجب ٤٧٩هـ = ٢٣أكتوبر ١٠٨٦م، حيث وُصِفت بأنها مدت في عمر الأندلس أربعة قرون.

وهكذا كان فضل العلماء والفقهاء والعاملين .. علماء النجدة والغيرة والاحتساب.

٩٥- التاريخ الأندلسي، ٣٩١ وما بعدها.

٩٦- التاريخ الأندلس، ٤٠٣ وما بعدها.

27

القاضي
الأمير الشهيد

كلٌّ يوم يأتينا الدليلُ القاطع على أن الماكرين لا عهد لهم أبداً، إلا لمصلحة أو لنقمة طمعاً، وإن كان في ذلك حتف أمتنا كاملة. وخير مصلحة هو إلحاق الأذى بها، حتى إنه ليكون العداء لها سبباً في اجتماعهم علينا. على أن حصن الأمة وعزتها وسعادتها كلما كان إيواؤها إلى كتاب ربها والعمل بمنهجه والاعتصام بتعاليمه. فلا خوف عليها عند ذاك، لا من عدوٍ ولا من دخيل أو عميل. وهذا كله مشهود على الدوام، والتاريخ خير شاهد.

وتتفتق أو تتدفق على الأمة الويلات والكوارث والنوازل حيث تضعف في الأخذ بالمنهج، ولكن العلماء عليهم دوماً أكبر المسؤولية، وخلال التاريخ قاموا بها وأدوا ما عليهم ورعوها حق رعايتها فعرفت الأمة قدرهم وكانوا لها أدلاء مخلصين، يقفون أمام الركب ويقودونه بالحق، اعتصاماً واحتساباً قائمين، بمثابة كهف أمين وموئل متين وملجأ حصين، وتاريخنا شاهد ودليل.

يبرز ذلك كله بوضوح في عصر الطوائف في الأندلس، القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي، حيث التمزق والتشتت والتهتك، يوم مال البعض عن الخط الخلقي الواضح الكريم [٩٧]، استهانة بالمهمة الملقاة عليهم.

كل ذلك تشهده في هذه الحكاية، ذلك أن مدينة بلنسية (VALENCIA) الأندلسية، نحو ٣٥٠ كلم شرق مدريد MADRID على البحر المتوسط شهدت على يد العدو المحارب (أيام الطوائف)، ما قد لا يخطر على بال، على قدر ما فيها من الخير والخيرات والشهامات. كان ذلك رغم ما مضى لهم من المسلمين من التسامح والعفو والإنصاف.

وانظر ما قام به رذريق الفيفاري (RODRIGO DIAZ VIVIAR) المعروف بالسيد الكمبيطوْر (EL CID CAMPEADOR، BRAVE)

٩٧- التاريخ الأندلسي: ص ٣٥٢.

أي: الشجاع أو الباسل أو المغامر، الموصوف لدى مؤرخينا بالطاغية، الذي كون جيشاً ينال به من مناطق ومدن أندلسية، قتلاً ونهباً وهتكاً، لا يرعوي عن جريمة مهما بلغت بشاعتها، وبروح عدوانية واضحة، يؤيده عدد من القادة هناك.

ولما اضطربت الأحوال داخل مدينة بلنسية تولى أمر إدارتها والدفاع عنها قاضيها الفقية: أبو أحمد جعفر بن عبدالله بن جحاف، واستعد بما يلزم للدفاع عنها أمام هذا الغول الشرس، الذي قدم لدخول المدينة عنوة فحاصرها بإحكام وشدة، لمدة عشرين شهراً [٩٨]، وعاث فيما حولها تخريباً وحرقاً، مانعاً عنها أقواتها وعاملاً على مقاتلة حماتها وحرق من يخرج من المدينة ليلاً، كيلا تقوى على الوقوف والدفاع ضده، حتى بلغ بأهلها الجهد فأكلوا الحيوانات الميتة أحياناً.

وكان الفقيه مصراً على الدفاع عن المدينة منتظراً العون من مناطق أخرى كتب إليها، لكن أناساً أجبروه على المفاوضة والتسليم (والصلح). فتم لهم ذلك بشروط تأمين الناس والمسؤولين والقاضي على حياتهم وأهليهم وممتلكاتهم.

فدخلها الطاغية بجنده جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ = أواسط ٦/١٠٩٤م. وفي الحال احتل الأبراج وسكن القصر، خلافاً للمعاهدة الموقعة نفس اليوم ومع ذلك جمع أشراف المدينة وتكلم عن سياسة العدل فيها وحمايتها!

لكنهم مضوا يحتلون دورها ومروجها. واستمر يتحيف عليهم ويتحيل حتى بلغ الأمر أن أحرق العديد من أعلامها وعلمائها، أولهم زعميها القاضي ابن جَحّاف، مدعياً عليه ومتهماً إياه بقتل حاكمها السابق العميل

٩٨- التاريخ الأندلسي لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، ١٠٣. نفح الطيب، ٤/٤٥٦. دول الطوائف، عنان، ٢٤٣.

وأخذ أمواله وحيله، وهو وليه يطالب بدمه[٩٩] ! والقاضي هو الذي أبى الخضوع له.

وتم حرق القاضي في حفل ومشهد أمام الناس، وذلك بعد أن أمنه على نفسه وماله، فسجنه وأسرته وأذاقه شديد العذاب ألوانا وأعدمه حرقاً.

وروى بعض شهود العيان ذلك، منهم المؤرخ البلنسي ابن علقمة (أبو عبدالله محمد بن خلف الصدفي، بلنسية ٤٢٨ - ٥٠٩هـ = ١١١٦م)[١٠٠] في كتابه «البيان الواضح في الملم الفادح» الذي شاهد تلك الحوادث، ودون يوماً بيوم المشاهد المبكية الدامية[١٠١].

حيث أمر الطاغية بحرق القاضي الفقيه مع أهله وبنيه وأسرته كاملة فضج كل الناس من ذلك حتى بعض أعوانه ومن أهل ملته (وربما حذر منه). فاكتفى بحرق القاضي الشهيد بأن حفر له حفرة في ساحة (ولجة) المدينة التي تعرف اليوم في بلنسية برحبة القاضي RAHBATOLCADI أمام كنيسة SANTA CATLINA والتي أصلها مسجد رحبة القاضي ٦، وأنزله فيها إلى حجزته (وسطه)، محاطاً بالحطب وأشعله فيه، والقاضي الفقيه المجاهد يضم النار إليه بيديه ليكون أسرع لخروج روحه، وهو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، وقبض على أقباسها وضمها إلى جسده فاحترق رحمه الله، وذلك في جمادى الأولى سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م. بعد سنة من معاهدة التسليم التي كانت منسلخ (آخر) جُمادى الأولى ٤٨٧هـ / ١٨/٦/١٠٩٤[١٠٢].

ثم أحرق هذا الطاغية أعلاماً آخرين منهم الشاعر الأديب الشهيد أبو جعفر أحمد بن عبدالولي البتي (البني) البلنسي[١٠٣].

٩٩- الحلة السيراء، ٢/١٣٠. دول الطوائف، ٢٤٢-٢٤٥.

١٠٠- الحلة السيراء، ٢/١٦٨. دول الطوائف، ٢٥١. الأعلام، الزركلي ٦/١١٥.

١٠١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٣/٦١. الحلة، ٢/١٦٨.

١٠٢- الحلة السيراء، ٢/١٢٦.

١٠٣- الحلة، ٢/١٢٧. نفح الطيب، ٤/٢١، ٤٥٦.

وهكذا أحرق العديد من الجلة والأعيان من أهل بلنسية وبعد أن تولى تعذيبهم في سجون، الرجال منهم والنساء، وهم يتصارخون أمام المحنة. كل ذلك لأنهم اجتهدوا للنصرة رجاء استمساك بلنسية وبقاء الكلمة فيها. ولقد اعتبر بعض الغربيين المنصفين هذا القمبيطور الطاغية رئيس عصابة، مستخفاً بكل القيم الإنسانية، حقوداً [١٠٤]. فنزعوا منه جميعاً كل هالةٍ أخرى، مهما كانت مزركشة ومزوقة ومبرقعة، فحقائق التاريخ تدمغه.

١٠٤- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ٢٧٨. العرب في إسبانيا، لين بول، ١٦٤. التاريخ الأندلسي ٣٧٤.

28

وقبَّل يدَ الوزير!

لا تجد أصالة في الحياة الإنسانية بأبعادها المتنوعة كتلك التي يصيغها الإسلام ويصبغها ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٨). ويبقى المجتمع الإسلامي كذلك حتى في حالات الضعف والتفلت والتدحرج فما أن تتهيأ الأجواء المناسبة حتى تستجيب للخير وتعود، بل وتستجيش بهواها نحوه، جارية في خطه، آخذة هداه ومداه، بل إن بعضها حتى وهي في حالات الضعف تأتي بصيغ كريمة.

ومهما يكن، فإن هبوب روح وريح الإيمان، هي التي ترتقي بالإنسان وحياته وتُوَرِّثُه الثمار المتبارية، قوة وعمقاً وابتداراً. أما حين تحيا بأصالتها فهي التي لا مثيل لها، لا تحيد ولا تتبدد أو تبيدُ بحال، مهما جرى وكان، خلال الأعوام والقرون.

وهؤلاء الآخذون بالمنهج هم أعمدة الحياة جمعاء، ترى من خلالهم مأتى الرقي الإنساني، مأواه ومثواه. لا ترى نماذجه إلا في هذه الأجواء ولا لون له إلا بهذا البناء ولا يستطاب طعمه إلا كلما اقتربت إليه. تطرب له وتزداد ويعجبك المشي في ركابه والحداء لموكبه والانتماء لقافلته.

وهذا للحياة الإسلامية ومجتمعها بل ونتاجها، حتى في أوقات الحسرة والانحسار وترادف عوامل الاندثار، حسابات رائقة وأفاعيل صادقة ومواقف ثابتة. كل ذلك لأن الأمر دين والسعي عقيدة والوقوف عندها قربى وعبادة لله رب العالمين، اقتداءً برسول الله الكريم ﷺ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

يلوح لك ذلك بوضوح من خلال التعرف على حقائق التاريخ الإسلامي، متروياً في النظر إليها ومحسناً قراءتها مدققاً في أبعادها، قاعدة في فهم هذا التاريخ الإسلامي والتعرف على طبيعته وإجادة تفسيره، حسب سنن الله سبحانه وتعالى في مجرى الأمور في الكون والخلق والحياة.

انظر إلى ما جرى عشية استسلام وتسليم غرناطة للملكين الكاثوليكيين فرناندو الخامس (FERNANDOV) وزوجته إيزابيل (ISABEL) (فردناند وإزابيلا)، في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ = ١٤٩٢/١/٢م، بعد معاهدة من سبعة وستين بنداً تؤكد كلها تأمين الناس على كافة حقوقهم وتكرر توقيعها من السلطات الكنسية والرسمية، التي ما إن تمكنت حتى بدأت بنقضها، بل وكذلك بإجبار الأندلسيين على التنصر، ومنعوا كل ما هو إسلامي وطاردوه وأحرقوه.



رسم يبين تسليم مفاتيح غرناطة من قبل آخر ملوكها (أبو عبدالله الصغير المعروف بالإسبانية BOABDIL) إلى الملكين الكاثوليكيين، سنة ٨٩٧ هـ ١٤٩٢م

وبدؤوا بالعلماء الذين كان منهم الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف المَوّاق [١٠٥]، عالمُ غرناطة وإمامها وشيخها، المفتي القدوة الحجة خطيب المسجد الجامع الأعظم فيها أحضروه إلى الكنيسة، التي حلت للتو محل

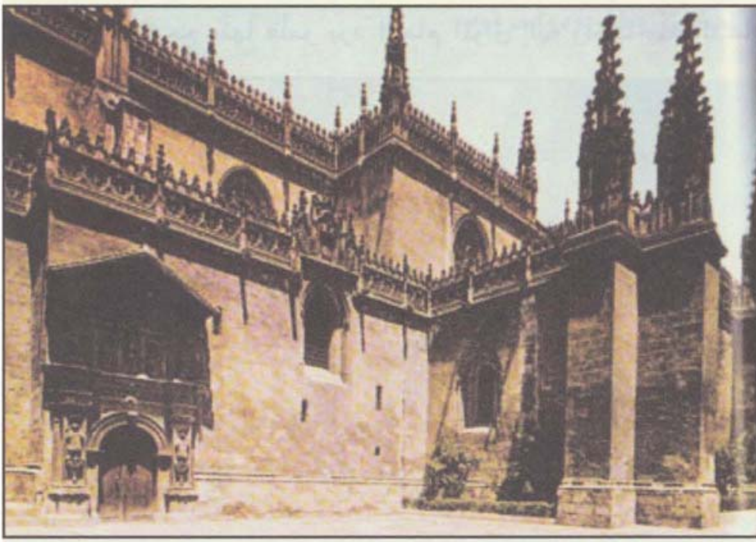
١٠٥- تجد كامل القصة: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة. ظروفها وآثارها ٩٢ وما بعدها، ١١٩، ١٥٥، ١٦٣، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٦٢.

مسجدها الجامع، وعرضوا عليه التعاون معهم والتفاهم والتنصر ترغيباً، مقابل الذهب (ذهب إبريز) والمجد والجاه، فأبى، فهددوه بالتعذيب والأذى والموت ترهيباً فامتنع، فأذاقوه شيئاً منه وأدموه، إلا أنهم رأوا أن يطلقوه استدراجاً وإمهالاً، لعله يلين ويستكين فيستجيب، لكنهم اشترطوا عليه أن يقبل يد الطاغية الوزير ففعل، فلامه الناس وأنكروه عليه فسكت.

وبعد أيام ظهرت له كرامة، إذ ما لبثت يد الوزير تلك أن تورمت مكان القبلة فيها وتوجع منها فأمر برد الإمام المواق إليه وطلب منه الدعاء للشفاء.

لكن مع ذلك استمرت محاولاتهم معه عن طريق الترهيب والتهديد بالقتل، وهو ما يعلمه نهاية وتقدم إليها محتسباً، فما وجدوا فيه مأرباً غير تنفيذ ذلك. فاستشهد بين أو تحت أيديهم وأمام أعينهم، مشهد يأنسون به. فذهب إلى الله شهيداً في شعبان سنة ٨٩٦هـ، بعد تسليم غرناطة بنحو ستة أشهر.

واستمر ذلك النهج حتى كانت محاكم التفتيش الغاشمة، لكن الإمام المواق ذهب إلى الله شهيداً مقبلاً غير مدبر قوياً ثابتاً، إيمانا واحتساباً، ليبقى مثالاً لكل حر كريم أصيل، رحمه الله تعالى وأكرمه وجزاه خير الجزاء على إبائه جهاداً واستشهاداً.



الواجهة الخارجية للمدخل الرئيسي لما يسمى المصلى الملكي، وقد بني بعد سقوط غرناطة بوقت قصير مكان المسجد الجامع، الذي حول إلى الكنيسة الرئيسية العظمى.

29

وهَنْدَسَ الفقيه مساجدَها

البناء الإسلامي للحياة الإنسانية والمجتمع والفرد رائع وأصيل، يطلق صاحبه في الحياة يقيمها ويُعليها ويصونها مُلكاً أميناً مصوناً، ينطلق بحثاً عن طريق مبتدعة للارتقاء والإعلاء والارتفاع بها، بدافع الأجر والقرب من الله تعالى.

وإن مبناه بمنهج الله تعالى يوفر تلك المعاني ويقيمها ويعمقها ويفتح أبوابها جديدة، يقودها إلى الإبداع المتميز إفراداً، والمتجدد أعداداً وإعداداً، فتمتلئ الحياة بالخير والفضل والأمن. يكون ذلك بمقدار الأخذ بمنهج القرآن الرباني. وكل خبرة لها الاستعداد والإمداد والاجتهاد. وكذلك كانت الخبرة تتحصل بسرعة مثالاً بأسلوب الجلال والجمال.

ومن هنا ينطلق المسلم في الحياة فأينما تضعه، مختاراً واعتباراً، تجده يُجيد ويُحْكم دوره ويُقدّم خيره، بشكل فيه المبادرة والابتداء وحسن الاختيار، إبداعاً وإرواءً وسبقاً حتى إن فعله يبقى مثالاً يحتذى، ورسماً يرتضى، وأسلوباً هادياً.

ولذا كان الإبداع في كل الميادين بشكل سبقٍ مثيرٍ للإعجاب، والتعجب والسبقُ لا في الزمن فحسب بل في النوع، وبذلك قدم المسلمون أعاجيب الإبداعات في كافة الميادين مما يعتبر مثالاً وأناقةً وجمالاً.

فهم إذن أسسوا أموراً عاشت الحضارات الأخرى عليها قروناً طوالاً، وما زالت أصولها لكثير من مقوماتها التقنية، تمتد وتشتد وتَتَّقِد. ولبعضها كان العجز والتخلف والقعود عن مضاهاتها ولو بعد قرون، رغم المثابرة والسعي والمصابرة.

فغدت الحضارة الإسلامية ذات أصول راسخة مَدَّت العالم بالأسس الحضارية الإنسانية، بذوق ولباقة ولياقة وفن ورقة ودقة، وبإحساس الجمال والمشاعر والحنان. وذاك واضح ملموس شامخ في كافة جوانب الحياة ومنجزاتها وميادينها، فكان ذلك أكبر من التعويض عن العمر الطويل

والذي لا يدرك ما يعطيه هذا المنهج بقوته وبنيته وربانيته. حتى مبانيهم امتازت بالمعنى الجمالي المعبر المفصح عن مبناها ومعناها واتسمت بالقوة والبساطة وبدون أدنى تعقيد، في كافة أمورها ومحتوياتها وصورها، حتى مادتها عجنت من أسهل وأوفر وأيسر المواد المتوفرة الصافية. اعتمدت على المعنى دون الحجم والضخامة والمظهر، كأنه استنباتٌ واستمدادٌ الندوة والنقاوة، واستجواب واستجلاب لمعاني الإسلام المتسمة بالعقيدة القلبية السمحة الصادقة والإيمان القوي النبيل الأصيل، مشاعر وأحاسيس ووجدان.

ذلك كله واضح جلي بهي، فيما بقي من عماراتهم ومناراتهم ومبانيهم، لاسيما في الأندلس، الأمر الذي جعل إسبانيا منذ نحو ربع قرن أو يزيد – وحتى الآن – أول بلد سياحي في العالم، بسبب الآثار الإسلامية فيه [١٠٦] لاسيما المتبقي منها، متأبياً على أيدي العيث والعبث والتخريب المتعدي، في مباني قرطبة CORDOBA وإشبيلية SEVILLE وغرناطة GRANADA وغيرها.

وحكاية اليوم عن جزئية في مسجد قرطبة الجامع، في وسط المدينة الأبية الثكلى الصبور، التي تنقلك وأنت تزورها أو تذرع دروبها، تتفقد مبانيها كأنها أيامها الأولى، لولا حزمة من جمالها الذاهب أو المهاجر أو المتناثر.

ومسجدها الجامع[١٠٧] هذا – الذي لم يكن في بلاد الإسلام مثله – وأنت تزوره لولا أنه أمامك محتفظاً شامخا ببعض شأنه متماسكاً ببقية من فنه، يلثم معماره شيئاً من جماله، لا تكاد تصدق وجود هذا الفن المتفرد النادر أو عديم المثال. وهو يعلن عن ذلك ويناديك، سلطاناً وإيماناً وحناناً،

١٠٦- مع الأندلس لقاء ودعاء ، ٣٣.

١٠٧- عن مسجد قرطبة الجامع، انظر: أندلسيات، ١٥٧/٢٢ وما بعدها. التاريخ الأندلسي ، ٢٤٤، ٣٠٣. مع الأندلس ، ٤٩ وبعدها.

علك تصافحه أو تنافحه وتغازله، ولو أمكن يحادثك وتحادثه.

وهو كذلك حتى هذه اللحظة، وقد احتمل مواجع التشويه والتحريف والتصريف، فكيف وقد مضى على بنائه ما يعانق ثلاثة عشر قرناً (منذ ١٧٠هـ = ٧٨٦م). تزوره مذهولاً مرة ومأخوذاً أخرى ومحزوناً بعدها. لعل الله تعالى يرزقك زيارته ومحاورته ومداورته، وقد تفنن فيه الواصفون مؤرخين وجغرافيين وزائرين وشعراء وأدباء وعلماء، أقوالاً وأنغاماً وأشجاناً. وقد استحق وصف أحدهم «يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف» فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً [١٠٨].

فأي نوع من المهندسين المعماريين أقاموا بناءه، تتداوله أيديهم على مدى قرون وكأنها عملٌ واحد بيد نفس المهندس.

مضت عادةُ الفاتحين المسلمين أن ينشئوا، أول ما ينشئون – بعد فتح أية مدينة – مسجدها، يقيمونه ابتداءً بناءً في أرض بكر – ما أمكن ذلك- لا يتحيفون على أحد فيه، وهنالك في الأندلس يضعون رسمه وتصميمه ويسددون قبلته.

١٠٨- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الأندلسي، القسم الخاص بقرطبة ومسجدها الجامع. الروض المعطار في خبر الأقطار، ابن عبد المنعم الحميري، ٤٥٦ وما بعدها. نفح الطيب، ١٥٣، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٥، ٥١٩، ٥٤٠، ٥٤٥، ٥٦٣، ٦١٦.

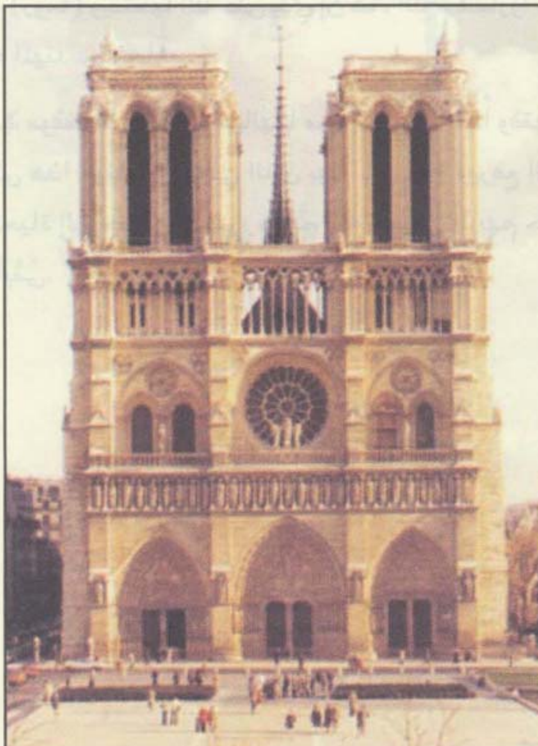


منظر جوي لمسجد قرطبة الجامع ويبدو كاملاً مطلاً على نهر الوادي الكبير

وكان عدد من التابعين دخلوا الأندلس لدى أول الفتح، كان منهم مهندس المساجد الأندليسة الفقيه المجاهد الإداري: حنش بن عبدالله الصنعاني (من صنعاء الشام) دخلها سنة (٩٣/ ٧١٢م) مجاهداً مع موسى بن نصير. وهو الذي تولى الإشراف على تأسيس عدة مساجد في مدنها: جامع مدينة البيرة ELVIRA أشرف عليه وجدد قبلته، وأسس المسجد الجامع بسرقسطة ZARAGOZA ووضع محرابه، ومسجد قرطبة الجامع الأول، كان على رأس مجموعة أشرفت على بنائه وتأسيسه، لاسيما تحديد وتعديل وتقويم قبلته وتركيزها بيده وتوجيه محرابه، ثم كان البناء الحالي على وضعه ووجهته ومحرابه، الذي ابتدأه الأمير عبد الرحمن الداخل قبل

سنة ١٧٠هـ . وتوالت الزيادات خلال أكثر من قرنين، لكنها كانت كلها كأنها بيد مهندس واحد.

ويذكر أن كنيسة نوتردام الباريسية، التي أنشئت بعد ذلك بقرون، استعين في بنائها بمهندسين معماريين أندلسيين، ورغم ذلك لا مقارنة بينهما، ولكن هيهات أين الثرى من الثريا ولما أريد لهذه الكنيسة أن يكون علو سقفها أعلى أو مثل مسجد قرطبة البالغ نحو تسعة أمتار على عمود قطره ٢٥سم كان قطر العمود في تلك الكنسية أضعافاً مضاعفة [١٠٩].



واجهة كنيسة نوتردام (NOTRE-DAME) الباريسية القريبة من نهر السين

١٠٩- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ٥٧٤.

وحكاية اليوم تتعلق بهذا الفقيه المهندس المجاهد. إنه بينما الجيش الفاتح وصل شمالي إسبانيا بقيادة موسى وطارق بعد فتح مدينة سرقسطة (شمال شرق مدريد ٣٢٠كلم)، وأراد القائد الانطلاق لما بعدها أخذ الفقيه حنش بعنان فرسه وأوقفه قائلاً له: أيها الأمير رفقاً بالناس لقد تبعوا وملوا وكلوا، لسنين ويريدون الاستراحة من عناء الجهاد الطويل. فتمهل، فضحك موسى كذلك وقال له: أرشدك الله وكثر من المسلمين مثلك، وبين أن لابد من الاستمرار، بل زاد موسى كذلك: «أما والله لو انقادوا لقدتهم حتى أوقفهم على رومية (روما) ويفتحها الله على يدي إن شاء الله»، فساروا جميعاً وسار هذا الفقيه المهندس المجاهد.

أليس في موقف كل منهما وأمثالهما من الآخرين جنداً وفقهاء وعلماء، ما يدل على هذا البناء الإنساني الذي يهنأ بكل بناء ويرفع اللواء ويحيل صحراء الحياة إلى حدائق غناء، رحمهم الله جميعاً وأثابهم خير الجزاء، وما عنده أبقى.

٧

30

أراد الرهبنة ..
فأسلم

الحق أبلج والباطل لجلج (أعوج، ملتبس غير مستقيم) يُقبل على الحق – قبل غيره – كل من سلمت نفسه من الانحراف واستقامت فطرته وأخضع إرادته للحق حيثما يظهر ولذلك فإنه خلال التاريخ، ابتداءً من اليوم الذي أنزل الله تعالى كتابه وأوحى إلى رسوله الكريم ﷺ ، كان أسرع إلى اعتناق هذا الدين، هم أفضل الناس أخلاقاً وأصفاهم فطرة وأجودهم رؤيةً وفهماً.

وانظر أولئك الذين أسلموا من أول الدعوة الإسلامية، لكن الآخرين قد يرون أحقية وحجية وصدقية هذه الدعوة، وتصدهم أمور ورواسب وموروثات وهم يتفاوتون في ذلك وبه كان كل يوم يرد دائرة نور الله أفراد، كان كثير منهم حاربه مدة.

ومن لم يلتحق به، رغم معرفته بالحق كانت تصده اعتبارات متنوعة موزَعة (وموزِعة). وحتى اليوم فإن كثيراً ممن درس الإسلام، وربما يقترب منه، لكن للأسف تعوقه أمور هامشية تراكمية مغرقة تثقله وتقعده وتبعده. ربما أية رسوبات وتراكمات وركامات، كما حدث مع الفيلسوف الفرنسي رينان الذي أشاد بالإسلام وأشار علناً عن شعوره الواضح بالأسف الشديد أنه لم يكن مسلماً [110]!؟

أما أهل الكتاب وعلماؤهم بالذات (يهوداً ونصارى) فقد أسلم الكثير، بما عرف من الحق بصفائه ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٤٦). وأولهم المتنصر ورقة بن نوفل، أبن عم خديجة (رضي الله عنها) زوج الرسول الكريم ﷺ في مكة المكرمة.

ثم في المدينة المنورة حيث أسلم حبرُ اليهود عبدالله بن سلام وخالته خالدة. وكذلك مخيريق النضري، والذي كان من علماء وأغنياء وزعماء اليهود، أسلم يوم أحد وخرج مقاتلاً واستشهد فيها فاستحق وصف رسول الله ﷺ له: «مخيريق خير يهود» [111].

١١٠- حضارة العرب، غوستاف لوبون، ٥٧٩.

١١١- نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ×، ١٠٧.

وخلال التاريخ وإلى اليوم يسلم الكثير منهم، فعل ذلك العديد من علمائهم ثم يؤلف كتاباً، يذكر قصة إسلامه. كما فعل اليهودي الأندلسي الذي أسلم وأسرته نهاية القرن الرابع عشر الميلادي وسمى نفسه: أبو محمد عبدالحق الإسلامي، ووضع كتاباً في ذلك (السف الممدود في الرد على أحبار اليهود)[112] بين فيه – مما بين – ما في كتبهم من البشارات بالرسول الكريم ونبوته ﷺ.

وحكاية اليوم تتعلق بأحد علماء النصارى الذي درس وهيأ نفسه وأسرته أن يكون راهباً وعالماً بديانته. وبعد دراستها لسنين طويلة نحو ربع قرن متنقلاً بين البلدان، انتهى به المطاف إلى الإسلام، في قصة عجيبة، ذكرها في كتابه الذي وضعه بعد إسلامه (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب)[113]. بين فيه بالدليل ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ من نصوص الإنجيل. كان قد تدرج في دراسته النصرانية حتى غدا أستاذاً وعالماً فيها. وتنقل من مدينة لأخرى من أجل ذلك، ابتداء من جزيرة ميورقة (MALLORCA) في البحر المتوسط، موطنه، ثم لاردة LERIDA قرب برشلونة BARCELONA ، ثم إلى مدينة أخرى في الشمال الإسباني أو في جنوب فرنسا، حيث درس على أحد أكبر علمائهم، وبقي معه عشر سنوات يساكنه ويخدمه ويدرس على يديه ويحضر دروسه اليومية في الكنيسة فأحبه الشيخ (القسيس) لما رأى من جديته وصدقه وإخلاصه. وبعد أن مضى على دراسته نحو ربع قرن حدث شيء عجيب.

ذات يوم ذهب التلميذ (الراهب الجديد) واسمه أنسيلموترميدا إلى الدرس مع الطلبة الآخرين، لكن القسيس لم يحضر، لِماَ ألم به. وأخذ الطلبة يتناقشون في المعلومات السابقة، فتذاكروا في مدلول كلمة البارقليط اليوناني PERICLYTOS، PERICLYTE ، التي تعني أحمد تماماً، التي

١١٢- هذا الكتاب مطبوع حديثاً في مدريد.

١١٣- هذا الكتاب مطبوع عدة مرات بعضها محقق.

سبق للقسيس أن أشار إليها في دروسه السابقة، التي تباينت حولها آراؤهم (الطلبة).

ولما انصرفوا ذهب الراهب إلى دار أستاذه القسيس الذي سأله عما دار بينهم، فأخبره عن كلمة البارقليط الواردة في الإنجيل وبشر بها عيسى عليه السلام، واختلف الطلبة في تفسيرها، وأن بعضهم قال بأنها تعني نبي الإسلام محمد بن عبدالله ﷺ.

فسأل القسيس الراهب وأنت ماذا تقول؟ قال: بجواب القاضي فلان في تفسيره للإنجيل، فقال له أستاذه: ما قصرت وقربت، وأثنى القسيس عليه، وقال وهو يبكي: إن تفسير هذا الاسم الشريف يعرفه الراسخون في العلم، وتوسل الراهب إلى أستاذه أن يبين له معناه، فقال: هو اسم نبي الإسلام – الدين الحق، وإذا أردت الدين الحق فاتبعه – فدهش وتعجب، فقال الراهب للقسيس (أستاذه): وأنت؟ فقال: أنا مسلم، ولكن لا أستطيع إعلان ذلك باعتبار كبر سني، لأنهم يقتلونني، فاستنصحه عما عليه أن يفعله، قال: إذا أردت الدين الحق فاتبعه واذهب إلى بلد مسلم وهناك أعلن إسلامك.

وفعلاً توجه أنسيلموا الراهب إلى تونس بعد أن مر بأسرته في جزيرة ميورقة لستة أشهر، ثم سافر إلى تونس عبر صقلية SICILY، SICILIA. وهناك أسلم وأعلن إسلامه وسمى نفسه عبدالله الترجمان لأنه امتهن الترجمة، وتزوج ورزق ولداً سماه محمداً تبركاً باسم النبي محمد ﷺ.

وعندها ألف كتابه المهم الجدير بالقراءة والاهتمام والفهم، سائراً في سنن المخلصين الصادقين الأقوياء

رحمه الله تعالى رحمة واسعة تامة سابغة..

نهـر متعــدد.. متجــدد

هــذا الكتــاب

والأمل ، كل الأمل إن شاء الله ، أن يتم تفهم ذلك، والتعلم منه والاعتبار له، وهو بعض المطلوب من وراء كل هذه الحكايات ، وهو من الأهداف المهمة لدراسة التاريخ عموما... ، مما يجعل الاهتمام به واجبا أو فرض كفاية، تنظر الأمة فيه وتعتبر وتقتبس منه، وهي في سبيل استئناف مسيرتها الكريمة بركبها المبارك ...

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية